أَلصُورَةُ القُرْآنيَّةُ لانْهِيَارِ المَوْجُودَاتِ

أ.د. أحمد الصفار
استاذ جامعي كيميائي
ومهتم بالدراسات القرآنية

فحوى البحث

تناول البحث مفهومين قد يكونان جديدين، وتمت مناقشتهما من خلال الآيات البينات. وهما أن الحياة قائمة لكل شيء في الموجود فلا موت لها بالمعنى المتعارف عليه إلا قبل القيامة، وأحد أدلة ذلك هو التسبيح المستمر ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾. فإن كل ما في الموجود له حياة. وإن ماتت الأحياء بسلب الروح عنها وتبلى أجسادها، فسلب الروح هو لإيقاف الفعاليات الحيوية فقط، فأجزاؤها تستمر فيها الحركة وستبقى تسبح.

والحياة هنا تعرّف بالحركة وليس بصفات التنفس، والتكاثر وغيرهما من الفعاليات الحيوية المتصف بها ما متعارف عليه بالكائن الحي. والتي تنتهي بسلب الروح منها. وهي التي حُـدِّد فناؤها بالآية الشريفة ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٍ ﴾. فالموت الكلي وهو (الهلاك) لايتم بسلب الروح منها بل هو بسكون الحركة الدائبة في الجوهر. وهذا ما يحاول الباحث عرضه وإثباته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمـــة:

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الكون وقدّر له الهلاك، ومثّل جلّ وعلا ذلك الهلاك بصورة نبات يخضرّ لأيام قليلة ما يلبث أن يصفرّ ويذبل فيحصد، فيُستأصل الموجود ولا يبقى له أثر بعد عين، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة يونس: ٢٤]. وسيكون زوالها سريعا وفناؤها كالهشيم تذروه الرياح، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [سورة الكهف: ٤٥]، ولا يبتعد هذا الوصف عن جعل "الحياة الدنيا في بهجتها المعجبة ثم الزوال كمثل مطر أعجبَ الحرّاث نباته الحاصل بسببه ثم يتحرك إلى غاية ما يمكنه من النمو فتراه مصفر اللون ثم يكون هشيماً متكسراً متلاشياً تذروه الرياح"[1]، فقال سبحانه وتعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [سورة الحديد: ٢٠]. وبالمحصلة لا يبقى منها شيء وينفد وينتهي كل ما فيها فقال سبحانه وتعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [سورة النحل: ٩٦].

لقد تميزت الحياة الدنيا بالحركة والتغيّر والتبدّل. وبتوقفها عن الحركة فإنه سينتهي كل شيء الى فناء وزوال وعدم بقاء. خذ مثلا توقف حركة الأرض حول الشمس عندئذ يتعرض نصفها المقابل الى الشمس لنهار دائم والنصف الآخر لليل دائم وما سيرافق هذا التوقف. قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ

(١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٩، ص ١٦٤.

عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[سورة القصص: ٧١-٧٢].

وسنوضح في الفصول التالية على الصورة اللحظية التي رسمها القرآن الكريم لانتهاء الموجود. ولكن قبل ذلك علينا أن نمر ببعض المقدمات.

الفصل ١:

الحركة في الموجود:

يترتب على الزمن كل من الحركة والفعل ورد الفعل وما يتصل بهما. ويحدد عامل الزمن في وجودنا على الأرض من ارتباطها بالشمس كدالة على ذلك. ونعلم أن من بين الحركات حركة الأرض حول الشمس وحول نفسها، وبسرعة ثابتة[٢]

(٢) سرعة الأرض عند خط الاستواء ٤٦٤ متر بالثانية. فمحيط كوكب الأرض من خط الاستواء = ٤٠٠٧٠ كيلومترا (٢٤٨٩٨ ميل)، وطول اليوم يبلغ ٢٤ ساعة. بالتالي بقسمه المحيط على طول اليوم، يمكنا أن نستنتج انه تبلغ سرعة الأرض عند خط الاستواء ما يقرب حوالي ١٦٧٠ كم/ساعة (١٠٣٧ ميل) وهذه ليست نفس السرعة عند خطوط العرض الأخرى.

وكذلك حركة الشمس الدائبة التي تجري وتنتقل من مكان لآخر فتتحرك متسارعة نحو مستقرها[٣] وعندئذ يتوقف سيرها في زمان ومكان محددين، قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ﴾[سورة يس: ٣٨]. وأصبح لكل من الشمس والقمر مسارا وفلكا خاصا بهما ويتحدد من خلالهما وضع كل واحد نسبة للآخر. فالليل هو الظل المخروطي الملازم لوجه الأرض المخالف للشمس، والنهار وهو خلاف الليل يعني الوجه المقابل للشمس، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾[سورة الأنبياء: ٣٣]، وهذه الحركة تؤثر في نظام الليل والنهار حيث يزيد هذا وينقص ذاك وبالعكس بحسب الفصول المختلفة وبقاع الأرض المتفرقة، وما ينقص من الليل يدخل في النهار وما ينقص من النهار يدخل في اللّيل، قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ

(٣) إن الشمس تجري نحو نجم النسر الواقع Vega، في مجرّة درب التبّانة.

﴿وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة لقمان: ٢٩].

الفصل ٢:
تراتبية الزمن للعوالم الوجودية

الزمن مرهون فقط -كما هو معلوم- بالعوالم السفلى وهي الدنيا أو ما يسمى بالناسوت[٤] وينعدم بالمراتب العليا المعرّف بواجب الوجود وهو الله سبحانه وتعالى ويسمى باللاهوت[٥].

«وأن ذات الله وهو الوجود غير المحدود والمستقل بقطع النظر عن الصفات ويسمى (غيب الغيوب) ومع أخذ صفاته الكمالية -التي لا تنفصل عن ذاته بل هي عين ذاته -يسمى باللاهوت كما أسلفنا. والوجود المتأخر عن ذات الله وصفاته وهو عالم العقل ويسمى بالجبروت[٦]، وما تأخر عنه من عالم النفوس الكليّة يسمى بالملكوت[٧]. وما هو أدنى منه مرتبة من عالم الطبيعة والمادة سماوياً كان أو أرضياً يسمى بالناسوت ولعالم الناسوت بشكل عام مرتبتان مرتبة القوة والاستعداد، ومرتبة الفعلية: والمراد من الفعلية صور العناصر والمركبات، من قبيل المعادن والنباتات والحيوانات والإنسان، التي يظهر كل واحد منها في حد خاص وله أثر مخصوص، والمراد من القوة: الهيولى[٨]

(٤) الناسوت: Human nature، وتطلق أيضا على عالم الشهادة أي الدنيا. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد التهانوي، (ت: بعد ١١٥٨هـ)، مكتبة لبنان ناشرون -بيروت، ١٩٩٦.

(٥) اللاهوت: في الأصل لا هو إلا هو، وحرف التاء زائدة عن قواعد العربية.

(٦) الجبروت: The all -mighty constraint، وهو عدا الملكوت. عند الصوفية عبارة عن الذات القديمة وهي صيغة المبالغة بمعنى الجبر. والجبر إما بمعنى الإجبار من قولهم جبرته على الأمر جبرا أو أجبرته أكرهته عليه، وتدعى مرتبة الصفات الجبروت. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد التهانوي، (ت: بعد ١١٥٨هـ)، مكتبة لبنان ناشرون -بيروت، ١٩٩٦.

(٧) الملكوت: Kingdom spiritual world، بفتحتين صيغة المبالغة بمعنى الملك والملك هو التصرف الصحيح بالاستعلاء، فالعبد له فيه اختيار ما دام في هذا العالم، وهي مرتبة الأسماء.

(٨) الهيولي: لفظ يوناني، بمعنى الأصل والمادة. وفي الاصطلاح: هي جواهر في الجسم قابلة لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال، والانفصال، محل للصورتين: الجسمية،

والمادة الأولى مما ليس له فعلية والذي يعد أساساً لكل الصور، ويقبل الصور المختلفة بفعل الحركة والتغيير في المسيرات المتنوعة»[٩].

فالحركة إنما هي في عالم الشهادة، وهي حركة انتقالية. وقد فسر الفيلسوف ابن سينا علّة الحركة الى ثلاث فقال: «فأسبابها ثلاثة: قسر، وطبيعة، وإرادة، والطبيعة نفسها ليست تكون علّة حركة مالم يقترن بها أمر بالفعل. أما الحركة الإرادية فإن عللها أمور إرادية كلية ثابتة، ولا يجوز أن يلزم عن علّة ثابتة أمر غير ثابت. أما الحركة القسرية: فإن كان المحرّك يلازمها فعلتها حركة المحرك وأفعاله، وعلّة عليتها آخر الأمر طبيعة وإرادة؛ فإن كلّ قسر ينتهي الى طبيعة أو إرادة؛ فإن القوة القسرية حالها في إيجاب الحركة بتجدد الأُيون (جمع أين) عليها حال الطبيعة الى أن تبطل، وإن الحركة أمر يحدث دائما، وكل حادث فله علّة محدِثة، فكل حركة لها علّة محدِثة، وهذا هو المحرّك»[١٠].

الفصل ٣: معنى الحياة:

لنبدأ بتعريف الحياة من تعريف نقيضها وهو الموت الذي يعرّف كما يلي: والموت لغويا كما جاء في لسان العرب[١١] «يقع على أنواع بحسب أنواع الحياة، فمنها: ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة في الحيوان والنبات، كقوله تعالى: ﴿فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾[سورة الروم: ٢٤]، ومنها: زوال القوة الحسّية، كقوله تعالى -حاكياً قول مريم عليها السلام ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾[سورة مريم: ٢٣]، ومنها: زوال القوة العاقلة، وهي الجهالة، كقوله

والنوعية، فالخشب هيولي الكرسي؛ والفضة هيولي الخاتم. كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، ١٩٨٣.

(٩) من المبدأ الى المعاد في حوار بين طالبين، حسين علي منتظري، مؤسسه تحقيقات ونشر معارف اهل البيت عليهم السلام، إيران، ص٧٠.

(١٠) المبدأ والمعاد، أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٩٨، فصل ٢٠ -٢٢، وفصل ٢٥.

(١١) لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر -بيروت، ١٤١٤هـ، ج ١٤ مادة موت.

تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[سورة الانعام: ١٢٢]، و﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ [سورة النمل: ٨٠]، ومنها: الحزن والخوف المكدر للحياة، كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾[سورة إبراهيم: ١٧]. وقد يستعار الموت للأحوال الشّاقة، كالفقر والذّلّ، والسؤال والهرم، والمعصية».

والموت أيضا "كل ما سكن فقد مات حتى يقال مات الحَر ومات البرد"[١٢]، وإن الموت جاء في القرآن الكريم للنفس فقط ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[١٣][سورة آل عمران: ١٨٥]، وقد يكون تعبيرا لانعدام الحياة للنبات والحيوان معبرا عنه بجفاف الأرض وخرابها فتصبح ميتة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[سورة البقرة: ١٦٤]، وكذلك في الآية الشريفة: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[سورة البقرة: ٢٥٩].

أما إذا قلنا نقيض الحياة هو الفناء: فالفناء: "نقيض البقاء"[١٤]، كما في الآية الشريفة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[سورة الرحمن: ٢٦]، لاحظ معي أن الآية تشير الى ﴿مَن﴾ فهي تتكلم عن فناء العقلاء معبرا عنهم بـ (مَن) وليس (ما)، وذلك لأن (مَن) هي للعقلاء. وذلك لأن "المنتفع بالتخويف هو العاقل فخصه تعالى بالذكر، ومع ذلك فإن كل ما على وجه الأرض مع الأرض فان"[١٥]، و "(مَنْ) هو للتغليب، أو من الثقلين –الجن والإنس –﴿فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ذاته ولو استقرأت جهات الموجودات وتفحصت وجوهها وجدتها بأسرها فانية في حد ذاتها إلا وجه الله أي الوجه الذي يلي جهته"[١٦]. «وإذا

(١٢) المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت ٤٥٨هـ)، ١٩٩٦ج ٢، ص ٨.

(١٣) [سورة الأنبياء: ٣٥]، [سورة العنكبوت: ٥٧].

(١٤) تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، دار الهداية.

(١٥) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث– القاهرة. ج١٥، ص ٧٧.

(١٦) تفسير البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله

ثبت ذلك وكانت الجواهر لا تفنى إلا بفناء يضادها على الوجود، فاذا وجد الفناء انتفت الجواهر كلها، لأنها اختصاص له بجوهر دون جوهر، فالآية دالة على عدم جميع الاجسام»[١٧]. وأن فناء الدنيا كلها إنما هو بفناء أجزائها.

«فالاستعمال في الجميع بأصل واحد. وقد استعمل القرآن لفظ الموت بهذا الملاك، مثلاً يقول: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾[سورة يس: ٣٣]. ويقول في الأصنام: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾[سورة النحل: ٢١]. ويطلقه على المراحل المتقدمة من خلق الإنسان، فيقول: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾[سورة البقرة: ٢٨]. فترى في الجميع نوع ذهاب وزوال، الأرض، أو للقدرة على الحركة والتكلم، كما في الأصنام، وغير ذلك"[١٨].

ويفهم من كل ذلك أن «الحياة والموت المشهودين في هذه الموجودات الحية الشاعرة المريدة، فإن هذه الحياة المجهولة لكنه لا يستطيع أن يوجدها إلاَّ من هو واجد لها، فلا يمكن أن يعلل بالطبيعة الجامدة الفاقدة لها، ولا بشيء من هذه الموجودات الحية، فإن حياتها هي وجودها، وموتها عدمها، والشيء لا يقوى لا على إيجاد نفسه ولا على إعدام نفسه»[١٩] وفي هذا المجال قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨]. نعم؛ وبكل تأكيد فإن الله سبحانه هو المبدع وهو المبدئ وهو الذي يسلب الحياة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾[سورة البروج: ١٣][٢٠].

وأما الحياة فقد عرّفت قرآنيا على أنها كما يلي: «الأول: للقوة النامية الموجودة

بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤١٨ هـ. ج٥، ص ٧٧.

(١٧) التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي (ت ٤٦٠ هـ).

(١٨) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، جعفر السبحاني، دار احياء التراث العربي، بيروت، ج ٤، ص ٢٢١.

(١٩) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢، ص ٣٥١.

(٢٠) [سورة يونس: ٤]، [سورة يونس: ٣٤]، [سورة النمل: ٦٤]، [سورة العنكبوت: ١٩]، [سورة الروم: ١١]، [سورة الروم: ٢٧].

في النبات والحيوان، ومنه قيل: نبات حي، قال عز وجل: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[سورة الحديد: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ [سورة ق: ١١]، وقوله ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾[سورة الأنبياء: ٣٠]. الثانية: للقوة الحساسة، وبه سمي الحيوان حيوانا، قال عز وجل: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ [سورة فاطر: ٢٢]، الثالثة: للقوة العاملة العاقلة، كقوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾[سورة الأنعام ١٢٢]، والرابعة: عبارة عن ارتفاع الغم، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[سورة آل عمران: ١٦٩] أي: هم متلذذون، لما روي في الأخبار الكثيرة في أرواح الشهداء. والخامسة: الحياة الأخروية الأبدية، وذلك يتوصل إليه بالحياة التي هي العقل والعلم، قال الله تعالى: ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[سورة الأنفال: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ [سورة الفجر: ٢٤]، والسادسة: الحياة التي يوصف بها الباري، فإنه إذا قيل فيه تعالى: هو حي، فمعناه: لا يصح عليه الموت"[٢١]، ليس ذلك إلا لله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[سورة البقرة: ٢٥٥][سورة آل عمران: ٢].

«لكنّها في نظر علماء الطبيعة تلازم الآثار التالية في الموصوف بها:

الجذب والدفع، والنُموّ والرشد، التوالد والتكاثر، والحركة وردّة الفعل. وهذا التعريف للحياة إنما يشير إلى آثار الحياة لا إلى بيان حقيقتها، وهي آثار مشتركة بين أفراد الحيّ ومع ذلك كلّه نرى البُعدَ الشاسع بين الحياة النباتيّة والحياة البشريّة. فالنبات الحيّ يشتمل على الخصائص الأربَع المذكورة، ولكن الحياة في الحيوان تزيد عليها بالحس والشعور وهذا الكمال الزائد المتمثل في الحسّ والشعور لا يجعل الحيوان مصدقاً مغايراً للحياة، بل يجعله مصداقاً أكمل لها. كما أَنَّ هناك حياةً

(٢١) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم –الدار الشامية، ٢٠٠٩.

أَعلى وأَشرف وهي أَن يمتلك الكائن الحي مضافاً إِلى الخصائص الخمس، خصيصة الإِدراك العلمي والعقلي والمنطقي»[٢٢].

وهنا أقف عاجزا حيال هذه التعريفات للحياة لأنها لا تشتمل على من هو دائب في حركته ينتقل في حركته ويغيّر موضعه كالنجوم والكواكب وغيرها. فهذه الأجرام تهتز وتدور وتنتقل، وتتوالد وتكبر وتهرم وتموت أيضا. فكلها في حركة مستمرة مادامت السماوات والأرض تماما كالإلكترون فماذا نطلق عليها؟.

دعنا نأخذ الشواهد القرآنية لتوصيف أفعال الأشياء التي لا تصنف ضمن – الكائنات الحية –كما دأب الإنسان على تصنيفها. بينما هي كلها تشير الى نوع من الإفاضة التي توحي بما أسميه (بالحياة): المعرفة بالحركة الذاتية.

أفعال الأشياء دليل حياتها:

١. **تسبيح الأشياء:**

لقد وصف الطباطبائي تسبيح الأشياء وهذا التسبيح مرتبط بالدلالة الذاتية العقلية قائلا «أن الأشياء قاطبة مسبّحة بحمده بوجوداتها القائمة به تعالى المعتمدة عليه، وهذا تسبيح ذاتي منهم ودلالته دلالة ذاتية عقلية غير مرتبطة بالدلالات اللفظية»[٢٣]، مفسرا الآية الشريفة ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [سورة الرعد: ١٣]، ويقول: "وكما أن إظهار هذه الأشياء لنفسها في الوجود إظهار لحاجتها ونقصها وكشف عن تنزه ربها عن الحاجة والنقص، وهو تسبيحها كذلك إبرازها لنفسها إبرازاً لما عندها من جميل فعل ربها الذي وراءه جميل صفاته تعالى فهو حمدها فليس الحمد إلا الثناء على الجميل الاختياري فهي تحمد ربها كما تسبحه"[٢٤] وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن

(٢٢) حسن محمّد مكّي العاملي، الصفات الثبوتية الذاتية https: // research. rafed. net.

(٢٣) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ).

(٢٤) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٣، ص ١١١.

﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: ٤٤]. وإذا كان التسبيح هو تنزيه الشيء ونسبته إلى الطهارة والنزاهة من العيوب والنقائص، فهنا جاء التعبير بالمضارع للدلالة على الاستمرار في الآية الشريفة ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الجمعة: ١][٢٥]. فالتنزيه مستمر منذ خلقت السماوات والأرض الى يوم زوالهما. فبأي إطار نضع استمرارية التنزيه كما هي استمرارية حركتها؟.

٢. معرفة الأشياء:

بالإضافة للصفة العقلية للأشياء فأن صدر المتألهين قد أعطى المعرفة لهذه الموجودات فقال: «وأنّ كلّ موجود على حسب وجوده عارف بربّه المتّصف بصفات الجمال، المنزّه عن نقائص الإمكان والزوال، ومن عرف الله فلا محالة يسبّحه ويقدّسه وينزّهه بلسان الحال أو المقال أو الفِعال، فكلّ موجود يسبّح بحمده إلاّ من غلب عليه الوهم المغيّر لخلق الله»[٢٦]، فبأي إطار نضع معرفتها بالله كما هي استمرارية تنزيهها وحركتها؟.

٣. سجود الأشياء:

وهذه الأشياء تسجد لله خضوعا وتذللا ومنها الدواب وهي ليست فقط التي تدبّ على الأرض بل أن «في ذلك من التلويح إلى أن ما نسب إليهم في كلامه تعالى من النزول والصعود والذهاب والمجيء مما ظاهره النقلة والحركة المكانية ليس من نوع ما للدواب من الدبيب والانتقال المكاني ما لا يخفى»[٢٧]، التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ [سورة النحل: ٤٩]. فإن جميع ما في العالم من المخلوقات حتى نفس السماوات والأرض تسجد لله سبحانه وتعالى سجودا ذاتيا، قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة الحشر: ٢٤]. فبأي إطار نضع استمرارية سجودها الذاتي كما هي استمرارية تنزيهها

(٢٥) [سورة التغابن: ١].

(٢٦) تفسير القرآن العظيم، صدر المتألهين محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي (ت ١٠٥٩ هـ)، دار الإيمان، قم.

(٢٧) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٤، ص ٢٦٦.

ومعرفتها بالله وحركتها؟.

٤. خشوع الأشياء:

بالإضافة لما مر أعلاه فإنها تخشع. والخشوع هو التذلل والخضوع، فيقول الله سبحانه وتعالى وإن كان الكلام مسوقا سوق المثل مبني على التخييل على إمكانية خشوع الجبل فيما أنه لو جعل في الجبل عقل ثم أنزل عليه القرآن لخشع وخضع، ولأنقاد لمواعظه، وتشقق من خشية الله، «حذراً من عقابه، وخوفاً من ألا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله»[٢٨]، ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾[سورة الحشر: ٢١]. وخشوع الأرض أيضا ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾ [سورة فصلت: ٣٩]. فبأي إطار نضع استمرارية خشوعها كما هي استمرارية سجودها الذاتي وتنزيهها ومعرفتها بالله وحركتها؟.

٥. توحيد الأشياء لله:

إن السماوات والأرض وغيرهما من أشياء توحده تعالى وتسبّح بحمده، وقد قال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[سورة الحشر ٢٤]، و "إن السماوات والأرض وغيرهما ناطقة بالتوحيد فعلاً متلبسة به. فما منها إلا مؤمن مطيع. بل وهي تأبى أن تخون الأمانة. أمانة ارجاع الولاية الإلهية لعدم استعدادها، وإشفاقها منها لعدم اشتمالها على صلاحية التلبس وتجافيها عن قبولها فأبين حملها"[٢٩]. قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [سورة الأحزاب ٧٢]. فبأي إطار نضع استمرارية توحيدها لله كما هي استمرارية خشوعها وسجودها الذاتي وتنزيهها ومعرفتها بالله وحركتها؟.

٦. نطق وشهادة الأشياء:

وتستوجب الشهادة القدرة على النطق أو التكلم أو أي أسلوب آخر لإظهار المستور. هذا من جهة وجهة

(٢٨) فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب –دمشق، بيروت، ١٤١٤ هـ.

(٢٩) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٦، ص ٣٥٠.

أخرى القدرة على الإفصاح عن حقيقة وعلم وكلاهما لا يحتاجان الى الكذب والتزوير. ولقد تكلم القرآن عن شهادة الأشياء بآيات عديدة[٣٠]، كما يقول سبحانه وتعالى ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النور: ٢٤]. ولأن الله هو خالقها فهو القادر على أن يجعلها تنطق بالشهادة وأنه «لا دليل على فقدان الأشياء غير ما استثنيناه للشعور والإرادة سوى أنا في حجاب من بطون ذواتها لا طريق لنا إلى الاطلاع على حقيقة حالها»[٣١]. ويذهب الرازي كذلك في هذا الرأي فيقول: أن «البنية ليست شرطاً للحياة ولا للعلم ولا للقدرة، فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق في كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء»[٣٢].

وتتجلى حقيقة إدراك الأشياء وعلمها بالله أنه العالم المطلّع عالم الغيب والشهادة وأنه لا تغيب عليه غائبة، فيقول عن نفسه سبحانه وتعالى: ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾[سورة البقرة: ٣٣]، ولذلك فإنها لا تتستّر على ما تعلم فتنطق «بمعناه الحقيقي»[٣٣]، قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾[سورة فصلت: ٢١]، «فأوجب نطقها وكشف عن العلم المدخر عندها المكنون في ضميرها فهي ملجأة إلى التكلم والنطق، ولا يضر ذلك نفوذ شهادتها وتمام الحجة بذلك فإنها إنما أُلجئت إلى الكشف عما في ضميرها لا على الستر عليه والإخبار بخلافه كذباً وزوراً حتى ينافي جواز الشهادة وتمام الحجة»[٣٤]. فالله سبحانه يتحدث عن أن الأرض ستدلي بشهادها أيضا ﴿ يَوۡمَئِذٖ

(٣٠) [سورة النور: ٢٤]، [سورة فصلت: ٢٠]، [سورة فصلت: ٢١ -٢١].
(٣١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٧، ص ٣٨١.
(٣٢) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة، ج ٢٧، سورة فصلت، ص ١١٧.
(٣٣) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٧، ص ٣٨١.
(٣٤) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٧، ص ٣٨٠.

﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾[سورة الزلزلة: ٤].

قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال: ((أتدرون ما أخبارها؟. قالوا: الله ورسوله أعلم قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها أن تقول: عمل كذا وكذا في يوم كذا وكذا فهذه أخبارها))[٣٥]. هذا يعني أن «الأرض شاعرة بما يقع فيها من الأعمال خيرها وشرها متحملة لها يؤذن لها يوم القيامة بالوحي أن تحدث أخبارها وتشهد بما تحملت، وأن الحياة والشعور ساريان في الأشياء وإن كنا في غفلة من ذلك»[٣٦]. فبأي إطار نضع إدراكها وشهادتها وشعورها كما هي استمرارية توحيدها لله سبحانه وخشوعها وسجودها الذاتي وتنزيهها ومعرفتها بالله وحركتها؟.

على أي حال فإن تنزيه الموجودات لله ودوام حركتها ومعرفتها بكمال خالقها وسجودها لله سبحانه وتعالى ذلك لأنها عالمة وعارفة، وشاعرة وحية ومريدة أيضا. كل ذلك لما أفاض الله عليها من عناية، «لأن أنفُس الأجرام السماوية عالمةٌ بما تفعل علما كليّا أو جزئيا، وعالمة بما يلزم أفاعيلها. وأنه سبحانه لمّا كان علمُ الحق الأول بنظام الخير في الوجود علما لا نقص فيه وكان ذلك سببا لوجود ما هو علم به حصل الكلّ في غاية الإتقان، لا يمكن أن يكون الخير فيه إلا على ما هو عليه، ولا شيء مما يمكن أن يكون للكلّ إلا وقد كان له. وهذا الذي يسميه الأوائل عناية»[٣٧].

هذه العناية التي سماها ابن سينا هي ذاتها التي عبر عنها القرآن الكريم بالهداية والتي اصطلح عليها عقديا بالهداية التكوينية، فقال سبحانه وتعالى ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾[سورة طه: ٥٠]، وأن "هداية كل شيء إلى مطلوبه، ومطلوبه

(٣٥) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت ٣٥٤هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٨. ج ١٦، ص ٣٦٠.

(٣٦) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢٠، ص ٣٤٢.

(٣٧) المبدأ والمعاد، أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٩٨، فصل ١٠، فصل ١١، ص ٨٧-٩١.

هو الغاية التي يرتبط بها وجوده وينتهي إليها والمطلوب هو مطلوبه من جهة خلقه الذي أعطاه، ومعنى هدايته له إليها تسييره نحوها كل ذلك بمناسبة البعض للبعض. وإلقائه الرابطة بين كل شيء بما جهز به في وجوده من القوى والآلات وبين آثاره التي تنتهي به إلى غاية وجوده"[٣٨]. وقال جل وعلا: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [سورة الأعلى: ٣]

ويأتي ذلك من تقدير الله وهدايته لكل شيء. و«جعل الأشياء التي خلقها على مقادير مخصوصة وحدود معينة في ذواتها وصفاتها وأفعالها لا تتعداها وجهزّها بما يناسب ما قدر لها فهداها إلى ما قدر فكل يسلك نحو ما قدر له بهداية ربانية تكوينية»[٣٩].

الفصل ٤: الحركة والتكامل:

من المعلوم أن هناك ترابطا بين الحركة والتكامل. حيث يقضي قانون الحركة والتكامل بأن يكون الانتقال من القوة الى الفعل، على أن الفيض اللاحق أكمل من الفيض السابق كما يعبر عنه. وهذه الحركة التكاملية بحاجة الى علّة، فالتقدم والتكامل في سلّم النمو والحركة، لا يمكن ان يصدر عفويا، فهو تكامل هادف، ويستحيل ان يتحقق من دون توجيه وتخطيط من مبدأ الكمال ومصدره وهو الله جل شأنه.

وإني أرى أنه لا يوجد مخلوق ممكن الوجود في هذا الكون ساكنا وبدون حركة. إذ أن بهذه الحركة أصبح الموجود قائما، وبغيابها يصبح هباء منثورا لا أثر له. وسأقف على هذا التصور على انفراد ان شاء الله.

الفصل ٥: الحركة الجوهرية:

الحركة الجوهرية كما عرفها الفيلسوف صدر المتألهين، هي أنّ كلّ شيء يتحرّك في ذاته كما يتحرّك في الخارج بحركة وضعيّة أو انتقالية فهذه الحركة الذاتية تسمّى بالحركة الجوهرية. فاعتبر أن جميع الحركات ترجع الى الحركة الجوهرية التي

(٣٨) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٤، ص١٦٦.

(٣٩) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ) ج٢٠، ص٢٦٥.

هي حركة استمداد وجودية من واهب الوجود سبحانه وتعالى والتغيرات الكمية التي تترتب على التغيرات الكيفية او بالعكس لم تكن لتتم لو لم يكن لها استناد الى الحركة الجوهرية. وهو ذات المفهوم الذي اعتمدته من عدم وجود (موت) بمعنى ثبات وسكون الحركة في هذا الكون وهذا الموجود -كما أسلفت -قبل الموت الأخير في التمهيد للنشر والقيامة.

إن أول شخص طرح هذه النظرية بشكل تفصيلي استدلالي هو صدر الدين أو صدر المتألهين الشيرازي[٤٠] حيث قال: «إن كل ذرات الكائنات وعالم المادة في حركة دائبة، أو بتعبير آخر: إن مادة الأجسام وجود سيال متغير الذات دائما، وفي كل لحظة له وجود جديد يختلف عن الوجود السابق له، ولكون هذه التغيرات متصلة مع بعضها فإنها تحسب شيئا واحدا، وبناء على هذا فإن لنا في كل لحظة وجودا جديدا، إلا أن هذه الوجودات متصلة ومستمرة ولها صورة واحدة، أو بتعبير آخر: إن المادة لها أربعة أبعاد: طول وعرض وعمق وأما البعد الآخر فهو ما نسميه (الزمان) وهذا الزمان ليس بشيء إلا مقدار الحركة في الجوهر»[٤١]. وبالمناسبة فإن صدر المتألهين بكلامه هذا قد سبق أينشتاين بطرحه بُعد الزمن ويمكن مراجعة ذلك أكثر من مضانه.

وقد ذهب أحدهم في تفسير مرور الجبال كالسحاب في الآية: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ

(٤٠) الشيخ صدر الدين محمّد بن إبراهيم بن يحيى القوامي الشيرازي المعروف بملّا صدرا، أو صدر المتألّهين (ت ١٠٥٠هـ)، من مؤلفاته: الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة العقلية، والشواهد الربوبية في المناهج السلوكية، والمبدأ والمعاد، ورسالة المشاعر، والحكمة العرشية، والمظاهر الإلهية في أسرار العلوم الكمالية، ومفاتيح الغيب، وكسر أصنام الجاهلية، ورسالة في حدوث العالم، ورسالة طرح الكونين، ورسالة في اتصاف الماهية بالوجود، ورسالة خلق الأعمال، ورسالة في القضاء والقدر، ورسالة في التشخيص، ورسالة في التصور والتصديق، ورسالة الواردات القلبية في معرفة الربوبية، ورسالة في اتحاد العاقل والمعقول، التفسير الكبير، متشابه القرآن، وغيرها كثير.

(٤١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٥. ج ١٧، ص ٤٠٤ -٤٠٥.

﴿أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة النمل: ٨٨]، الى الحركة الجوهرية للجبال فقال: «أن الأشياء كالجبال تتحرك بجوهرها إلى غاية وجودها وهي حشرها ورجوعها إلى الله سبحانه»(٤٢).

وهذا يدفعني الى التفكير عميقا في جوهر أو ماهية الحركة الجوهرية للمادة وما حقيقتها؟. وإني أذهب معتقدا أنها تنطلق تماما من حركة الإلكترون، ابتداء كمنطلق لتكوين الجزيئات والمركبات والمواد الملموسة والمحسوسة في وجودنا. فهي الحركة الجوهرية المتوفرة في كل شيء في الموجود المادي. وهي الحركة القائمة من بداية الخلق الى انتهائه. ولا أجد مصطلحا يناسبها ليعمم على الموجودات كلها عاقلها وغيرها. فإن قلت روحا فإني سأصطدم بالتصنيفات التي وضعها الفلاسفة والمشتغلون بالجانب العقائدي والبيولوجي، وغيرهم. لقد اصطلحوا على بعض الكائنات الحية ونزعوها من النباتات والجمادات. ثم أودعوها في بعضها على مراحل متدرجة وليست دفعية كما في الإنسان بعدما تجتمع النطفة بالبويضة مستندين للآية الشريفة ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [سورة السجدة: ٨ -٩]. وقالوا إن الحياة هي ليست الروح فالنبات له حياة وليس روح.

وقال آخر في تشخيص الفرق بيت الروح والحياة «أن الروح من قرائن الحياة، والحياة عرض. والروح جسم رقيق من جنس الريح وهو جسم رقيق حساس»(٤٣).

وأضيف للتمييز بينهما أن هناك حياتان مستمرة ومستقرة. «فأما المستمرة فهي الباقية إلى انقضاء الأجل بموت أو قتل. والحياة المستقرة هي أن تكون الروح في الجسد ومعها الحركة الاختيارية دون الاضطرارية. وضابطها أي الحياة المستقرة أن يكون فيه حركة اختيارية وتعرف

(٤٢) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٥، ص ٤٠٢.

(٤٣) الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت ٣٩٥هـ)، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

بانهيار الدم أو بالحركة العنيفة أو بهما»[٤٤].

وأيا كان فهناك حركة ونشاط وقد سميت بأسماء مختلفة. فالروح هي المسؤولة عن العمليات الحيوية. وبسلبها تتوقف تلك العمليات الحيوية، ولكن لا يتحقق الموت الكامل، وما يطلق من لفظ الموت إنما هو نقيض الحياة وهما اللفظان المتداولان.

خذ مثلا عن تمثيل الروح في العمليات الحيوية. فالنشاط الكيميائي الحيوي، الذي يعبّر عن حيوية كل خلية في الكائن الحي، فأنه يتم تحت سيطرة الحامض النووي «دي إن إيه، DNA"[٤٥] والذي يتواجد داخل نواة الخلية في أي كائن حي علي وجه الأرض، ودعنا نقول إنه يعتبر بذرة الحياة الأولى.

وقد وجد أن -مادة الحياة -في سائر المخلوقات (ما تسمى بالكائنات الحية) تشترك في أنها تتألف من نفس العناصر التي نراها من حولنا في التراب مثل الكربون، والهيدروجين، والأوكسجين، والنتروجين. ولكن

(٤٤) حاشية الجمل على المنهج لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري، المعروف بالجمل (ت: ١٢٠٤هـ)، دار الفكر. ج١٠، ص ٣٤٤.

(٤٥) الدي أن إيه (DNA)هو العماد الأساسي للكائنات الحية ووجود الحياة على الأرض. إذ أنه يمكن أن يكرر نفسه، أي يصنع مثيلا له. وهو الذي يحتوي على التعليمات الجينية التي تصف التطور البيولوجي للكائنات الحية ومعظم الفيروسات؛ كما أنه يحوي التعليمات الوراثية اللازمة لتكوين أعضاء الجنين سواء في الرحم أو البيضة أو النبات، أي لكل الكائنات الحية .يعتبر وسيلة التخزين الطويل الأجل للمعلومات الوراثية وهي الوظيفة الأساسية لجزيئات (الدي أن إيه)، بالإضافة إلى أنه يمكن من خلال هذه الجزيئات الحصول على المعلومات اللازمة لبناء البروتينات والحمض الريبي النووي (بالإنجليزية: RNA). تسمى قطع الدي أن إيه (DNA) التي تحمل معلومات وراثية يمكن ترجمتها لبروتينات بالمورثات أو الجينات. تتواجد بعض قطع الدي أن إيه لأغراض تركيبية وتنظيمية. ويمكن تصور أن (الدي أن إيه) عبارة عن مخطوطة، أو برمجة سوفتوير، موجودة في نواة خلية. واللغة المكتوبة بها تتكون من أربعة حروف. والجملة المكونة من عدة كلمات منها تعرف بأنها (جين). وكل (جين) يتكون من مئات أو آلاف الحروف. وجميع الوظائف التي تؤديها الخلية فهي تنظم عملها وفقا لترتيب الشفرة المكتوبة بالحروف الأربعة في هذا المخطوط. https: //ar. wikipedia. org.

بنسب مختلفة. والغريب أن كلتا الخليتين الحية والميتة تحتويان على نفس العناصر الكيميائية ولكن بموت الخلية يتوقف «الـدي أن إيـه» عـن إعـطـاء الأوامـر لاستمرار العمليات الكيميائيـة، فالسّر في التحريك والأوامـر الكيميائيـة في الاستمرار بالنشاط هو المشترك بين الميت والحي، ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾[سورة آل عمران: ٢٧]. وأرجو الانتباه أن بموت الخلية أي بتوقف الأوامر التي تحدث الفعاليات الحيوية، فإنه سيبقى جزيء "الدي أن أيه" قائما، لكنه لا يعمل. والـذي أودّ الإشـارة اليه أن الـروح التي كانت في جـزيء (الدي أن إيه) تنجز الفعاليات الحيوية وبسلبها تتوقف تلك الفعاليـات ولكن الجزيء يبقى كمركب كيميـائي بالمفهوم الجديد للحياة غير ميت بل ذو حركة جوهرية دائمة بوجوده كمركب قائم. إذ لولاها لما استقر كمركب موجود. فهو حي بحركة الكترونات ذراته المختلفة ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولًا﴾[سورة الأنفال: ٤٢].

فهداية هذا المركب الكيميائي للقيام بـدوره وهـو حي (الـروح فيه) يختلف تماما فيما لو صنعته كيميائيا (لا روح فيه) فإنه لن يعمل ولا ينقل المورثات. فماذا نسمي هذا السر؟. لا بأس لنسمّه بالحياة المستمرة التي تنتهي بسلبها وهو الموت بتوقفه وليس بهلاكه وتفتته الى أجزائه. ثم لا يمكن أبدا أن ترتبط العناصر المكونة (للدي أن أي) المكون الأساس للحياة إلا من خلال الروابط أو الأواصر الكيميائية التي هـي بـدورهـا مكونة مـن اشـتراك إلكترونان لكل رابطة بين ذرتين وهذان الإلكترونان ناشطان متحركان دائما ما دامت السماوات والأرض. ألا تعد هذه الحركة حياة مستمرة؟.

الفصل ٦: حركة الإلكترون:

علمنا أن لا حـركـة ذاتيـة مـن غير مسبب، وأن الثابت لا يسبب في حركة متحرك، وكـما نعلم أن الطاقة محفوظة لا تستحدث بل يمكن نقلها من صورة الى أخـرى ولا يمكن عدمها عـلى أن يكـون ذلـك في نـظـام مـعـزول وهـو ما اصطلح عليه قانون الديناميكا الحرارية

(Thermodynamics).

وأن الإلكترون يدور حول النواة بسرعة ثابتة وبطاقة محددة حسب نظرية بور[٤٦]. وفيما بعد تطور المفهوم في نظرية الكم ليصبح سحابة إلكترونية. وقال العلماء أنه يشكل سحابة الكترونية بمستوى محدد من الطاقة عن النواة.

والسؤال هنا هو من أين أكتسب الإلكترون طاقة الدوران هذه؟. فيأتي جواب الفيزيائيين أنه طالما أن الإلكترون مشحون بشحنة سالبة فإنه يتأثر كثيرا بالمجال الكهربائي، وبتعبير أدق فإنه يتعجل بهذا المجال، وبما أن له كتلة صغيرة جدا فإنه سيتعجل بسرعات عالية جدا حتى بوجود مجال كهربائي ضعيف جدا. ويشبهون حركته حول النواة تماما كحركة الكواكب حول الشمس. فبينهما تجاذب وللكوكب قوة طاردة تمنعه من السقوط على الشمس. وأن الكوكب ينجذب نحو الشمس لأن كتلته أقل من كتلتها.

وكذلك فإن كتلة الإلكترون أصغر من كتلة النواة. وللإلكترون كما للأرض دوران حول نفسها ويسمى بالغزْل وبعزم زاوي كمي بقيمة ٢/ ١ أما باتجاه عقارب الساعة فيكون بقيمة موجبة أو عكس عقارب الساعة فتكون قيمة سالبة. ولكن كيف اكتسب الإلكترون هذا الدوران الذاتي، وكيف اكتسبت الأرض أو الكواكب هذا الدوران الذاتي، أيضا؟. لا أريد أن أخوض في كل الافتراضات العلمية والنظريات. ومهما كانت فالنتيجة أن هناك حركة دورانية للإلكترون حول النواة مكونا سحابة سالبة الشحنة[٤٧]. ولولا هذه الحركة الدورانية والمتلازمة مع الحركة المغزلية الإلكترونية لما قامت الدنيا على شكلها المحسوس والملموس.

(٤٦) نظرية بور: في عام ١٩١٣ قام العالم الدانماركي نيلز بور بتطوير نظرية دمجت أفكار كل من بلانك واينشتاين أكسبته جائزة نوبل عام ١٩٢٢ وتعد نظريته أول نظرية وضعت لتفسير التركيب الالكتروني لذرة الهيدروجين، وتنص على أن الإلكترون يدور حول النواة في مدارات محددة دون أن يفقد شيئا من طاقته.

(٤٧) لكل إلكترون على حدة في السحابة الإلكترونية حول ذرة مفردة (حرة)، يعبر عنها على شكل دالة رياضية في ميكانيكا الكم. ويعبر عن المدار الذري في ميكانيكا الكم بعدد الكم المداري.

ومن المعلوم أن الذرة هي أصغر جسم في الكون وأنها لا يمكن تكسيرها أكثر مع الإبقاء على صفة المادة قائمة. فخاتم الذهب مثلا يمكن تكسيره الى قطع صغيرة فأصغر الى أن ننتهي بذرات الذهب التي هي ذرات عنصر الذهب، ولا يمكن ان نرى هذه الذرات بالمجهر. ولكن لو تم تحطيم ذرة الذهب الى مكوناتها من نواة والكترونات بعملية تفاعلات نووية فسوف لن تبقى ذرة ذهب، وسوف لا تحتفظ المكونات الجديدة فيما بعد بصفات عنصر الذهب بل سيكون عنصرً آخر ومكونات أخرى.

وأن أبسط مركب في الكون كله هو جزيء غاز الهيدروجين. حيث أنه يتكون من اتحاد ذرتي هيدروجين مع بعض وذلك بتكوين رابطة إلكترونية[٤٨] بين الذرتين مكونا جزيء الهيدروجين الغاز الذي يملأ الكون وما بين النجوم، وهو المكوّن الرئيس لشمسنا. هذه الرابطة ناتجة من مساهمة كل ذرة بإلكترون واحد. بسبب غزل كل واحد منهما عكس اتجاه الآخر فإنهما يتجاذبان نتيجة لتكوين مجالين مغناطيسيين متعاكسين وبذلك يتكون الجزيء.

ولك أن تتخيل كيف تكوّن جزيء الماء أو جزيء السكر أو الرمل أو مركبات الصخور وهكذا. فلو توقف هذا الإلكترون عن حركته المغزلية فإنه لا يمكن أن يرتبط مع إلكترون آخر وبذلك لا يتكون جزيء. وهذا يعني أنه سوف لا يوجد ماء ولا غازات ولا صخور ولا جبال ولا شمس ولا أي شيء من الذي تراه اليوم وتحسه وتلمسه. بل سيبقى الإلكترون في ذرته وحيدا وهذه الحالة غير موجودة وإذا وجدت فسيكون

(٤٨) تقوم الإلكترونات بتكوين مدار جزيئي بين ذرتين ويتماسك الجزيء. تفاعلات الإلكترونات تنشأ نتيجة القوة الكهرومغناطيسية حيث تتأثر الإلكترونات (سالبة الشحنة) مع نواة الذرة (موجبة الشحنة) وكذلك تتأثر فيما بينها، فتنشأ الروابط بين الذرتين، وبعض الخصائص الأخرى مثل المغناطيسية.

وتكوّن الذرات رابطة في حالة أن تكون طاقتها بعد الارتباط أقل من طاقتها قبل الارتباط. حيث تتحرك الإلكترونات في الذرة والجزيئات في مستويات محددة للطاقة.

عمرها لحظيا. إذ أن كل الكترون له غزْل كمي وله قيمة واتجاه وعلى أساس هذا الافتراض تم شرح كل الحقائق الملموسة في حياتنا اليومية وعلى أساسه أيضا يتم تكوين مركبات جديدة من أدوية وأصباغ وصناعات وكل شيء.

والسؤال مرة أخرى لماذا يا ترى تدور الإلكترونات بحركة مغزلية؟.

للإجابة عليه نعود الى ما ابتدأنا به الموضوع؛ وقلنا أن لكل حركة محرِّك. فحركة الإلكترون حول النواة، أو حركة الكواكب حول شموسها، أو حركة الشموس كلها هل هي ذاتية بنفسها وإرادتها؟.

لقد ناقش هذا السؤال الفيلسوف ابن سينا وملخص اجابته أنه قال: «لأن الحركة المستديرة دائمة فلا يجوز أن يتم دوام الحركة المستديرة بهذه القوة النفسانية وحدها. لمقدمتين: إحداهما أنه لا يمكن أن يكون لجسم من الأجسام قوة غير متناهية، والثانية أنه لا يمكن أن تكون قوة متناهية يصدر عنها فعل غير متناه، لأن القوة تقدر بالفعل، وبالعكس. وما كان فعله غير متناه فهو ذو قوة غير متناهية. وقد بان ووضح أن لهذه الحركة محركا غير متناهي القوة وأنه مباين الذات لكل جرم، فإذن هذا المحرك هو غير النفس الذي هو كمال للفلك وقابل للتغيّر، لأنها قوة جسمانية، وهذا المحرك لا يمكن أن يكون كمالا لجسم ولا قوة في جسم. وتحقيق هذا أن الجرم السماوي يستمد القوة غير المتناهية بما يعقل من الأول ويسنح عليه من نوره وقوته دائما»[٤٩].

ويعود ذلك الإتقان في هذه الحركة الى موجدها وخالقها، فهذا الاتقان «صادر عن عِلمُ الحقّ الأول بنظام الخير في الوجود عِلما لا نقص فيه، وكان ذلك العلم سببا لوجود ما هو علم به حَصل الكل في غاية الإتقان، لا يكون الخير فيه إلا ما هو عليه، ولا شيء مما يمكن أن يكون للخير إلا وقد كان له»[٥٠]. إن الله سبحانه وتعالى قد

(٤٩) المبدأ والمعاد، أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٩٨، فصل١١، ص٣٨-٤٤.

(٥٠) المبدأ والمعاد، أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٩٨، فصل ١١، ص ٨٨.

خلق كل شيء على وجه الإتقان والإحكام والاتساق، وقد قال سبحانه: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[سورة النمل: ٨٨]. فالله هو المحرّك، وهو الذي يفيض على الأشياء حركتها ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة يس: ٧٩].

فلعدل الله ورحمته أن مدّ الإلكترون بالحركة خيرا منه وكمالا منه سبحانه وتعالى. والسؤال هنا ماذا لو سُلبت هذه الحركة من واهبها؟.

الفصل ٧:
مفهوم الحياة مطلق لكل الأشياء في الكـــــون:

علمنا مما سبق أن لا حركة ذاتية من غير محرّك، وأن المتحركات لها إرادة بالطول مع الإرادة الإلهية، مطيعة ومستجيبة له. كما في قوله :﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[سورة فصلت: ١١]. "وقد تبين أيضاً في المعالم الإلهيّة إثبات العقل والإرادة للأرض بالبرهان المنوّر بأنوار القرآن"[٥١]، واستبشـــرت فأحيطت ببركة إلهية ومستشرقة بنوره ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [سورة الزمر: ٦٩]. والله سبحانه قد أمدها بالحياة، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ﴾ [سورة فصلت: ٣٩]. والحياة تعني "ومن اكتحلت عين بصيرته بنور الحكمة الحقّة، يعلم أنّ كل جرم فله حياة ونفس وعقل، إذ ما من جسم إلاّ وله صورة طبيعيّة هي مبدأ حركته القريبة، وكلّ جسم من شأنه التفرّق والانقطاع والتكثّر، وعند القطع والتكثير تنعدم ذاته ويزول اتّصاله، وكلّ طبيعة من شأنها الاستحالة والسيلان دائماً. فالنَفْس الروحانيّة هي علّة اتّصال الأجرام ووحدانيّته، فالوحدة والاتّصال مستفادان في كل جرم من النَفْس، وكذا البقاء والاستمرار له لسيلان طبيعته واستحالتها. والنَفْس لا يتمّ وجودها إلاّ بالعقل، لأنّها أيضا من حيث الفعل والتدبير طبيعة، ومن حيث الذات والحقيقة عقل، فثبت أنّ الأرض ذات حياة نفسانيّة، ولها كلمة فعّالة روحانيّة.

(٥١) تفسير القرآن العظيم، صدر المتألهين محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي (ت ١٠٥٩ هـ)، دار الإيمان، قم.

واستدلّ معلّم أسلاف الحكماء -والكلام لصدر المتألهين -على أنّ الأرض ذات حياة بأنّها تنمو وتنبت الجبال-فإنّها نبات أرضي-، وفي داخل الجبال حيوانات كثيرة ومعادن، وإنّما تتكوّن هذه منها لأجل الكلمة ذات النفس فإنّها هي التي تصوّر في داخل الأرض هذه الصورة. وهذه الكلمة هي صورة الأرض الفاعلة فيها هذه الأفاعيل، ولا يمكن أن تكون ميتة وتفعل هذه الأفاعيل العجيبة العظيمة، فان كانت حيّة فإنها ذات نفس لا محالة. فإن كانت هذه الأرض الحسيّة حيّة -وهي صنم -فبالحريّ أن تكون الأرض العقليّة حيّة -انتهت حكاية كلامه. أنّ الأعيان الجوهريّة دائمة التوجّه إلى الله تعالى توجُّها معنويّا وحركة ذاتيّة، وما من جوهر عينيّ له صورة وجوديّة إلاّ وله هذا السير الحثيث إلى الحضرة الإلهيّة، وهو أبداً في الانتقال من صورة إلى صورة، ومن طور إلى طور حركة رجوعيّة وسيراً استكماليّاً"[٥٢] كما قال سبحانه: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[سورة النمل: ٨٨].

فأصبح الآن من الضروري أن أعود الى الفكرة في أن الحياة مطلقة في الكون لكل الأشياء وليست مختصة بما اصطلح عليه بالكائنات الحية فقط، بل أن الحياة تشمل كل الموجودات. لأن الكون يتكون من أصغر جزيء وهو جزيء الهيدروجين الى أكبر الجزيئات من البوليمرات وبينهما ما تراه وتتحسسه في الحياة الدنيا. ولا يمكن أن يتكون جزيء من غير تكوين رابطة الكترونية ناتجة من حركة الإلكترونات. ولعدل الله ورحمته أن مدّ الإلكترون بالحركة خيرٌ منه وكمالٌ منه سبحانه وتعالى. فأي صخرة أو حبة رمل أو ورقة نبات أو رميم جثة فإنها مكونة من مركبات كيميائية. وهذه المركبات مكوّنة من ذرات ترتبط فيما بينها بروابط إلكترونية. ففي هذه المركّبات حركة دائبة مستمرة وهي مستمدة من محرِكها ومطلقِها ومنشِئها، وهو الله الخالق القدير وهاديها لفعلها، فاستجابت لأمره طائعة

(٥٢) تفسير القرآن العظيم، صدر المتألهين محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي (ت ١٠٥٩ هـ)، دار الإيمان، قم.

بإرادة ذاتية ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: ٤٠]. والسؤال الآن ماذا لو سلبت هذه الحركة؟.

ماذا لو سُلبت هذه الحركة من قبل واهبِها؟.

إن في الإجابة على هذا التساؤل تتجلى حقيقة يوم القيامة -والله العالم-، والصوَر المهولة المرافقة لها. إن سلب الحركة الذاتية للإلكترون فإنه يعني انهيار كل جرم ملموس ومحسوس في الكون، وتصح عليه الآيات التالية:

١. **الجبال:**

الله سبحانه الذي جعل الجبال مثبتات للأرض من الميد والإمالة يمينا وشمالا كما قال سبحانه في أكثر من آية ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾(٥٣) [سورة النحل: ١٥]. هذه الجبال المكوَّنة من تراب وصخور وغيرهما، وبدورها فإن كل واحدة منها مكوَّن من مركبات كيميائية. وأن هذه المركبات الكيميائية متكوّنة من ارتباط ذرات متنوعة. وذلك من خلال روابط كيميائية، وهذه الروابط الكيميائية ناشئة من حركة متعاكسة لإلكترونين. وأن كل ذرة من الذرتين المترابطتين تساهم بإلكترون واحد أو أكثر لتكوين رابطة واحدة أو أكثر مع الذرات الأخرى. فإذا توقف الإلكترون عن حركته (بالأمر الإلهي) فإنه سيلبّي طائعا كما تمّ ذلك للسماوات والأرض حيث سمعتا النداء الرباني فاستجابتا بإرادتهما الذاتية ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: ١١]. وستتحطم الرابطة الكيميائية وسيتفكك المركب متحولا الى ذراته وهذه الذرات تموت بموت الحركات الأخرى لمكونات النواة. حينئذ لم يعد هناك وجودا كما كان ولا موجودات وتعود كلها الى مكونات الذرة الساكنة غير المتحركة وينتهي الكون الى عالم مكونات الذرة والله العالم.

فالجبال بعدما تصير كثبانا مهيلا يسيرها على وجه الأرض كما تسير

(٥٣) وأيضا في: [سورة الرعد ٣]، [سورة الحجر: ١٩]، [سورة الأنبياء: ٣١]، [سورة النمل: ٦١]، [سورة لقمان: ١٠]، [سورة فصلت: ١٠]، [سورة ق: ٧]، [سورة المرسلات: ٢٧].

السحاب في السماء لا بل ستصبح كالسراب لا حقيقة لوجودها ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾[سورة النبأ: ٢٠]، فهي هباء منتشرا. ولأن الأنسان لا يستطيع وصف الهباء أكثر مما عرّف على أن الهباء هو شيء مرئي في شعاع الشمس الداخل من الكوة. وفي الحقيقة هو لا شيء كما وصف الله عمل الكافرين في الآخرة فوصف عملهم المحبط بأنه هباء: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[سورة الفرقان: ٢٣]، فتصبح الجبال الرواسي المثبتة للأرض هباء منثورا ولا ترى وإنما هي وهمٌ كالسراب لا حقيقة له.

٢. **الأرض:**

لقد خلق الله الأرض وجعلها مبسوطة محلا للاستقرار ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾[سورة البقرة: ٢٢]، وجعلها قرارا ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾[سورة غافر: ٦٤] ومهدّها للعيش ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾[سورة طه: ٥٣]، كما أن الله سبحانه قد مكّن الإنسان منها والعيش فيها ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾[سورة الأعراف: ١٠]. لقد أحكم الله صنعه وما كان خلقه للأرض من غير نظام، فما خلق الله سبحانه وتعالى السماء والأرض وما بينهما لعباً ولهواً وما أبدعها عبثاً ولغير غاية وغرض حاشا الله وتعالى الله علوا كبيرا ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾[سورة الأنبياء: ١٦]. فلم يكن خلقها من غير غاية ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾[سورة ص: ٢٧] بل أنه سبحانه قد خلقها بالحق ﴿ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾[سورة الدخان: ٣٩]. وحفظها من الزوال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾[سورة فاطر: ٤١]، ولكن هذه الأرض لا تبقى كما هي. بل سيتغير النظام، وينشأ نظام غير هذا النظام الذي نعهده ولا يمكن أن نتصوّره، ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾[سورة إبراهيم: ٤٨]، والله العالم كيف ستكون، فستزول عنها الجبال وتصبح مستوية لا جبال ولا وديان ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾[سورة الكهف: ٤٧]. ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ

﴿ مُدَّتْ ﴾ [سورة الانشقاق: ٣] فلا حائل أو حاجز فيغطيها نور الله ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾[سورة الزمر: ٦٩]. وتشقق ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾[سورة ق: ٤٤]، فتهتز الأرض وتزلزل ويدق بعضها على بعض فترج رجا ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾[سورة الواقعة: ٤]. وتدك دكا ﴿ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾[سورة الفجر: ٢١]. فترجف الأرض ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ ﴾ [سورة المزمل: ١٤]، فتزلزل كل الأرض زلزلة قوية ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [سورة الزلزلة: ١]، فستفرغ ما في داخلها ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [سورة الزلزلة: ٢]، فتضطرب الأرض وتتردد في الذهاب والمجيء مثل الموج ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾[سورة الملك: ١٦]، فتحاط بالقدرة الربانية فتدك وتفتت الى أجزاء صغيرة فتدك الأرض بدكة واحدة لا تثنى بأخرى تقضي على وجودها، ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾[سورة الحاقة: ١٤]، وهذا يعني أن "الدك أشد الدق وهو كسر الشيء وتبديله إلى أجزاء صغار، وحمل الأرض والجبال إحاطة القدرة بها، وتوصيف الدكة بالواحدة للإشارة إلى سرعة تفتتها بحيث لا يفتقر إلى دكة ثانية"[٥٤].

٣. السماء:

هذه السماء التي بنيت[٥٥] بأيد[٥٦] وقدرة، وجعلت سقفا محفوظا[٥٧]، عالية الدقة في الجمال والنظام، وجعل فيها بروجا وزينة[٥٨]، سيتغير ويتبدل نظامها ولم تعد كما كانت عليه. وسوف لا أذكر الى ما سيجري لها فقد أذكره في مكان آخر. وهنا سأذكر الآيات التي تناولت هذا التبدّل: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ

(٥٤) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٩، ص ٣٩٧.

(٥٥) [سورة البقرة: ٢٢]، [سورة غافر: ٦٤]، [سورة ق: ٦]، [سورة الذاريات: ٤٧]، [سورة النازعات: ٢٧]، [سورة الشمس: ٥].

(٥٦) [سورة الذاريات: ٤٧].

(٥٧) [سورة الأنبياء ٣٢].

(٥٨) [سورة الحجر: ١٦]، [سورة الفرقان: ٦١]، [سورة فصلت: ١٢]، [سورة ق: ٦]، [سورة الملك: ٥]، [سورة البروج: ١].

لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٤] ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ [سورة الطور: ٩]، ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾[سورة الدخان: ١٠]، ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [سورة الرحمن: ٣٧]، ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ [سورة الانفطار: ١]، ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ [سورة المزمل: ١٨]، ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴾ [سورة المرسلات: ٩]، ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾[سورة النبأ: ١٩]، ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ [سورة الانشقاق: ١]، ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [سورة الحاقة: ١٦]، ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ [سورة التكوير: ١١] ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾ [سورة المعارج: ٨].

فالله سبحانه وتعالى خلقها في بداية خلقها فكان حالها كالدخان، "حال كونها شيئاً سماه الله دخاناً وهو مادتها التي ألبسها الصورة"[٥٩]: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[سورة فصلت: ١١].

وشاء الله سبحانه أن ينتهي كيان السماء بعد تلك الصور التي رسمها القرآن الكريم من خلال الآيات أعلاه من التشقق والتقطع والانصهار والوهن والضعف بعد ذلك تعود هذه السماء الى الصورة نفسها التي بدأت منها، وهي التي وصفها سبحانه وتعالى بالدخان: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة الدخان: ١٠]. لقد ذكر الله سبحانه في الآية الشريفة: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٤].

فبعد طي السماء بمعنى "ذهابها عن الحس"[٦٠]، أو «يفنيها فتتحول دخاناً»[٦١]،

(٥٩) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٧، ص ٣٦٥.

(٦٠) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(٦١) تفسير القمي، أبو علي بن إبراهيم القمي (القرن الثالث)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ج٢، ص ٧٧.

وأن الطي للسماء هو «رجوعها إلى خزائن الغيب بعدما نزلت منها وقدرت»[٦٢] كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[سورة الحجر: ٢١]. فتعود السماء الى الحالة التي ابتدأها سبحانه وتعالى قبل الخلق، فاعتبر سبحانه وتعالى "تشبيه الاعادة بالإبداء في جواز تعلّق الارادة والامكان، او تشبيه المعاد بالمبتدئ"[٦٣]. بمعنى آخر «يعيد أوّل الخلق كما بدأه، تشبيها للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء، وما أول الخلق حتى يعيده كما بدأه؟. قلت: أوّله إيجاده عن العدم، فكما أوجده أولا عن عدم، يعيده ثانياً عن عدم»[٦٤].

(٦٢) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٤، ص ٣٢٩.

(٦٣) تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة، سلطان محمد الجنابذي الملقب بسلطان علي شاه (ت القرن ١٤ هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

(٦٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، دار المعرفة، ٢٠٠٩، ج٣، ص١٣٧.

الفصل ٨:

الموت والفناء والإعدام والهلاك:

الإعدام كما عرّفه الطوسي على أنه تفريق الأجزاء، وفصّل أكثر فجعل المكلّف يعاد وذلك بجمع أجزائه بينما لا يعاد غيره، وجاز إعدامه بالكلية ولا يعاد ويصدق عليه أنه هالك بمعنى أنه غير منتفع به، أو يقال: إنه هالك بالنظر إلى ذاته، فقال «فإن المكلف بعد تفريق أجزائه يصدق عليه أنه هالك بمعنى أنه غير منتفع به، أو يقال: إنه هالك بالنظر إلى ذاته، فالإعدام بتفريق أجزائه ولا امتناع في ذلك، فإذا فرق أجزاءه كان هو العدم فإذا أراد الله تعالى إعادته جمع تلك الأجزاء وألفها كما كانت فذلك هو المعاد. ويدل على هذا التأويل قوله تعالى في سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية الإحياء للأجزاء في الآخرة، لأنه تعالى لا يحيي الموتى في دار التكليف وإنما الإحياء يقع في الآخرة، فسأل عليه السلام عن كيفية ذلك الإحياء وهو يشتمل على السؤال عن جميع المقدمات التي يفعلها الله تعالى حتى يهيئهم ويعدهم لنفخ الروح، فأمره الله تعالى بأخذ أربعة

من الطير وتقطيعها وتفريق أجزائها ومزج بعض الأجزاء ببعض ثم يفرقها ويضعها على الجبال ثم يدعوها، فلما دعاها ميّز الله تعالى أجزاء كل طير عن الآخر وجمع أجزاء كل طير وفرقها عن أجزاء الآخر حتى كملت البنية التي كانت عليها أولا ثم أحياها الله تعالى ولم يعدم تلك الأجزاء فكذا في المكلف، هذا ما فهمناه من قوله: كما في قصة إبراهيم عليه السلام، فهذا هو كيفية الإعدام»[٦٥].

إذن فإعدام الشيء هو تفريق أجزائه وبجمعها إعادته للحياة، والسؤال هنا هو من الذي يجمعها بعد التفريق؟. فإن قلنا إن ذات الشيء تجمع نفسها فذلك غير ممكن لأنها في ذاتها مخلوقة ولا تملك لذاتها أن تحيي ذاتها بعد التفريق، وإنما من خلقها أول مرة قادر على أن يعيدها سيرتها الأولى. «فذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى يدعوهم بكلمة التكوين: كونوا أحياء، فيكونون أحياء كما كان شأنه في بدء الخلقة، ذلك إذ قال للسماوات والأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا: أتينا طائعين»[٦٦].

وهذا ما نلاحظه في قصة إحياء الطيور المقطعة أجزاؤها، إذ عبّر عن إعادة الحياة بالسعي وهو نوع من الحركة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠].

وكذلك السماء والأرض فإن الله سبحانه وتعالى جمع أجزاءَهما وكان دخان بعد تفرق. فأمر الدخان الذي هو مادة السماء والأرض أن يكون سماءً وأرضاً فكانا سماءً وأرضاً قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[سورة فصلت: ١١]. مع ملاحظة استجابة السماء

(٦٥) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد- الخواجة نصير الدين الطوسي، (ت ٦٧٣ هـ)، شرح جمال الدين الحسن بن يوسف الحلي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ص٥٤٦.

(٦٦) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢، ص ٣٦٨.

والأرض وطواعية فعلها. وذلك لإرادتهما الذاتية ولعلمهما بقدرة القدير الذي أنطق كل شيء ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[سورة فصلت: ٢١]. إذن فإن العدم هو تفريق أجزاء الحي، والحياة هي جمع الأجزاء.

وما هو الموت إذن؟. لقد وصف الموت على أنه "ما استحال معه النمو والإحساس ولم تصح معه القدرة والعلم وهو نقيض الحياة، والموت من فعل الله تعالى وليس لأحد فيه صنع ولا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى"(٦٧). ويتعلق الموت بذي روح مثل الحيوانات ومنها العاقل وهو الإنسان ذو الأفعال الاختيارية أو التي لها أفعال جبرية كباقي الحيوانات والنباتات. وعلى أي حال سواء كانت الحياة متعلقة بالروح او النفس او الحركة فالموت نقيض الحياة.

وأما الفناء فهو الموت لذوات الشعور «أي كل ذي شعور وعقل على الأرض سيفنى وفيه تسجيل الزوال والدثور على الثقلين»(٦٨)، لقوله تعالى بالإشارة للضمير من في الآية الشريفة ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ [سورة الرحمن: ٢٦].

"إنّ ملاحظة المعنى اللغوي، والاستعمال القرآني للفظ الموت، يفيد أنّ الموت أمرٌ عدمي، ولكنه من زاوية أُخرى، ليس أمراً عدمياً في موت الإنسان، وذلك لو فسّر الموت بقبض الملائكة الطاقات الحسية الموجودة في الإنسان؛ فإنّه أمرٌ وجوديٌّ، وإن كانت النتيجة أمراً عدمياً. ويمكن جعله أيضاً من الأمور الوجودية في الإنسان، بمعنىً آخر، وهو أنّ الموت نافذة على الحياة الجديدة"(٦٩). يقول أمير المؤمنين عليه السلام في إشارة الى أن الموت انتقال وليس فناء: «أيّها الناس، إنّا خُلقنا وإيّاكم للبقاء، لا للفناء لكنكم من دار إلى دار

(٦٧) تصحيح اعتقادات الإمامية تأليف الإمام الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان ابن المعلم أبي عبد الله العكبري، البغدادي (ت ٤١٣ هـ) تحقيق حسين درگاهي، ج١، ص٩٤.

(٦٨) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٩، ص١٠٠.

(٦٩) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، جعفر السبحاني، ج ٤، دار احياء التراث العربي، بيروت.

تنقلون»[٧٠]، فالفناء كما يتضح هو أمر عدمي.

والهلاك: «بطلان الشيء من العالم وعدمه رأسا»[٧١]، وأن «هلاك الأشياء بطلان وجودها الابتدائي وخلوّ النشأة الأُولى عنها بانتقالها إلى النشأة الأُخرى ورجوعها إلى الله واستقرارها عنده»[٧٢]، ويتأكد لنا أن الأشياء كلها الى زوال ماعدا الواجب الوجود الخالق للأشياء، فهو هالكها جميعها ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [سورة القصص: ٨٨]. والفرق بين الإهلاك والاعدام: "أن الإهلاك أعم من الإعدام لأنه قد يكون ينقض البنية وإبطال الحاسة وما يجوز أن يصل معه اللذة والمنفعة، والإعدام نقيض الإيجاد فهو أخص فكل إعدام إهلاك وليس كل إهلاك إعداما"[٧٣]. وسأقف عند هذه العبارة في موضوع الانتقال بعد النفخة الثانية والتي تسمى نفخة الإحياء التي هي بعد النفخة الأولى نفخة الإماتة حيث يتحقق الهلاك الكامل لكل شيء، وسيكون في الفصل التاسع.

الفصل ٩: السكون:

يعرف السكون على أنه «ثبوت الشيء بعد تحرك»[٧٤]. كما في حال سكون الارض ووقوفها عن حركتها فإنه سيمتد الظل وسيدوم، فالحركة الطبيعية للأرض حول نفسها ستجعل الظل يمتد ويطول بدلالة الشمس، ولو شاء الله لجعل الظل ساكنا بسكون الأرض كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّۖ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗاۚ ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ [سورة الفرقان: ٤٥]. "ولازم ذلك أن يكون المراد بمد الظل ما يعرض الظل

(٧٠) الإرشاد: للشيخ المفيد، ص ١٢٧.

(٧١) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم –الدار الشامية، ٢٠٠٩، مادة هلك.

(٧٢) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٦، ص ٩٢.

(٧٣) الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت ٣٩٥هـ)، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

(٧٤) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم –الدار الشامية، ٢٠٠٩.

الحادث بعد الزوال من التمدد شيئاً فشيئاً من المغرب إلى المشرق حسب اقتراب الشمس من الأفق حتى إذا غربت كانت فيه نهاية الامتداد وهو الليل، وهو في جميع أحواله متحرك ولو شاء الله لجعله ساكناً، والدليل هي الشمس من حيث دلالتها بنورها على أن هناك ظلاً وبانبساطه شيئاً فشيئاً على تمدُّد الظل شيئاً فشيئاً ولولاها لم يتنبه لوجود الظل"(٧٥). فقال تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾[سورة الفرقان: ٤٥-٤٦].

قلنا إن المتحرك لا يتحرك بذاته بل يحتاج الى محرِّك، وهنا يضع الله سبحانه وتعالى تساؤلين فيما لو غيرت الأرض دورانها حول نفسها حول القطب الحالي الشمالي الجنوبي الى محور عرضي عمودي على الشمس، أي كحركة القمر حول نفسه حول محوره العمودي على الأرض، فماذا سيكون؟. سيكون الوجه المواجه للشمس في نهار دائم سرمدي، والوجه البعيد عن الشمس سيقع بمخروط الظل وسيكون في ليل سرمدي، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[سورة القصص: ٧١-٧٢]. ومن المعلوم أن حركة الرياح والمياه في البحار والمحيطات كلها ستتأثر بحرارة الأرض وبمعنى آخر أن حركتها حول الشمس مرهونة بحرارة الأرض. وبثبوتها فإن حركة الرياح ستسكن وكذلك تيارات الماء، قال تعالى ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ [سورة الشورى: ٣٣].

ولكن في تصوّر آخر؛ فيما إذا توقفت الأرض في دورانها حول نفسها فجأة، فإن الجو المحيط بالأرض سيستمر بسرعته الأصلية وهي سرعة دوران الأرض والتي تساوي ١٧٦٠ كيلومتر في الساعة على خط الاستواء، وهذا يكفي لكنس ما على وجه الأرض ليس له جذور صخرية.

(٧٥) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٥، ص ٢٢٥.

وكذلك ستتلاطم مياه المحيطات والبحار لتنسكب جانبا، فتغمر كل شيء، كما وسيطول اليوم ليصبح مساويا ٣٦٥ يوما عاديا.

وسيواجه نصف الأرض للشمس وترتفع درجة الحرارة، بينما النصف الآخر سيغمره الظلام وسيبرد كثيرا، ولا نرى ما تعودنا عليه من تبدل الليل بالنهار وغروب وشروق إلا بعد نصف عام. وماذا بعد؟.

لو توقفت الأرض عن دورانها حول الشمس فماذا يحدث؟.

يرسم العلماء صورة افتراضية معتمدة على الحسابات الرياضية فيفترضون أن الأرض ستتسارع بالسقوط نحو مركز الشمس. والتي تبعد عنها بـ ١٥٠ مليون كيلومتر، وأن رحلتها ستستغرق ٦٤ يوما ونصف، بينما سترتفع درجة الحرارة بشكل مضطرد الى أن تصل الى ٣٠٠ درجة مئوية في اليوم الستين والأيام الأربعة الأخيرة سترتفع بشكل سريع الى أكثر من ٣٠٠٠ درجة مئوية.

ويقال: إنه بعد شهر من رحلة الأرض نحو الشمس وبتلك السرعة الهائلة تؤدي الى رفع درجة حرارتها الى ٥٨ درجة مئوية، وسيصبح حينئذ نور الشمس شديدا جدا. بينما تبدأ المعامل على الأرض بالتوقف، وستحترق الغابات وتموت معظم الحيوانات ويصبح العيش صعبا. وباقتراب الأرض من الشمس أكثر فإن درجة حرارة الماء سترتفع أكثر فيؤدي الى خروج بعض الغازات الذائبة في الماء وأحدها الأوكسجين، فتموت الأسماك بسبب نقص الأوكسجين بينما ترتفع نسبة غاز الأمونيا، وبذلك فإن بارتفاع درجة حرارة الماء فإنها ستقضي على سلسلة الغذاء الموجودة في الماء، وهذا يعني موت الحياة المائية. ولا يفوتنا أن نذكر أنه سيسبقها جفاف الهواء الذي يؤدي الى قتل الحشرات.

وبينما تستمر رحلة الأرض نحو الشمس، وحينما تصل درجة الحرارة ١٠٣ مئوية سيبدأ الماء بالغليان على سطح المحيطات والبحار، عندئذ سيغطي الأرض بخار كثيف. ولكن بسبب الضغط العالي في أعماق المحيطات فإنه يمنع من

غليان الماء في الأعماق.

وفي اليوم الأخير، فإنه ستقترب الأرض جدا من الشمس وبسبب الجذب الهائل من قبل الشمس فإن شكل الأرض سيتغير الى الشكل الكمثري فينسحب الوجه المقابل للشمس بقوة، مما يعجل في فتق وجه الأرض وتتشقق الصخور وتتفجر وتُخرج ما فيها على شكل حمم من بين الصخور المنفطرة. ثم تبدأ الصخور بالانصهار. علما أن درجة حرارة سطح الشمس هي ٥٧٠٠ كلفن، بينما في مركزها فإنها تساوي ١٥ مليون كلفن[٧٦].

ولو تساءلنا، ماذا لو اختفت الشمس من مدارها المرسوم لها؟. من المعلوم أن الشمس تتحرك بجريان نحو مستقرها أو حتى تنتهي إلى مستقرها ومن ثم استقرارها وسكونها بانقضاء أجلها أو زمن استقرارها أو محله بذلك الجريان فإنه مقدّر بزمن ومكان محددين ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [سورة يس: ٣٨]، على أن "ظاهر الجري هو الدال على الانتقال من مكان إلى مكان"[٧٧]، فالشمس لا تزال تجري ما دام النظام الدنيوي على حاله حتى تستقر وتسكن بانقضاء أجلها حينئذ ستخرب الدنيا ويبطل هذا النظام، وعندئذ فإن الأرض ستفلت من مدارها حول الشمس وستسير بسرعة مستقيمة مهولة وبسرعة ٣٠ كيلومتر في الثانية. ومن ثم سيغمر الأرض ظلام دامس وستبرد حرارتها بشكل سريع. ومن المعلوم أن ٩٩. ٩٪ من الإنتاج الطبيعي على الأرض هو من عمليات التمثيل الضوئي والتي تعتمد على الشمس، كما لم يعد باستطاعة النباتات أخذ ثاني أوكسيد الكاربون، وطرح الأوكسجين الغاز الحيوي. علما أن اختفاء ضوء الشمس يستغرق ٨ دقائق و٢٠ ثانية يومئذ سنرى آخر غروب للشمس. وآخر شيء يراه الإنسان هو القمر قبل انتهاء التسعة دقائق الأخيرة. وبعدها يعم الأرض الظلام، ولكن لا يزال يصلنا ضوء

(٧٦) الصفر المئوي تساوي ٢٧٣ كلفن.

(٧٧) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٧، ص ٨٩.

ضعيف جدا من المجرة التي نحن فيها ولكن بشدة قليلة مساوية لـ ٣٠٠/ ١ من ضوء القمر، وهو كما ترى ضئيلا جدا لا يكفي حتى للرؤية، فستنار المدن بالإنارة الاصطناعية. بينما يعم الظلام المناطق الأخرى غير المضاءة.

وكما أسلفنا فبغياب ضوء الشمس سيتوقف التمثيل الضوئي ولم يعد هناك امتصاص لغاز ثاني أوكسيد الكاربون لإنتاج غاز الأوكسجين الغاز الحيوي لبقاء الكائنات الحية على الأرض. كما أنه وبعد أسبوع واحد من غياب ضوء الشمس فإن سطح الأرض سيبرد الى درجة الانجماد أو أقل منها. وبالتأكيد فستموت جميع النباتات وسيتبعها موت كل الحيوانات ومنها الإنسان الذي يعتمد على النبات، وبعدها بعام ستنخفض درجة الحرارة الى (-٧٣) درجة مئوية وعندها ستتجمد كل المياه في العالم.

كان ذلك التصور العلمي للتغيرات المتوقعة في النظام الشمسي. وهو كما ترى مجرد افتراضات لا يمكن تأكيدها بتجربة. ولنعد الآن للصورة القرآنية.

الفصل ١٠:
الصورة القرآنية للحظة انهيار الموجودات:

يرسم القرآن الكريم الصورة الحقيقية لما سيجري عند بدء العالم الأخروي، فسيحصل تغيير كوني شامل، وأنه سيقوم نظام جديد لا يعتمد على السنن المتعاهد عليها التي أودعها سبحانه وتعالى في الحياة الدنيا.

ونؤكد هنا تماما جهلنا بما سيجري يومئذ إلا ما أشار له القرآن الكريم. وسنمر على ما ذكره القرآن الكريم بالإفادة أيضا من التصورات العلمية التي سنّها الله سبحانه وتعالى والتي على أساسها قام الكون، وبانهيارها سينتهي ذلك النظام الكوني الجميل الذي وصفه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة

البقرة: ١٦٤].

فأرضنا جزء من الكون المحاط بسقف يحفظه وهي السماء ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾[سورة الأنبياء: ٣٢] التي زينها سبحانه وتعالى بمصابيح ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ [سورة الملك: ٥]، ولأن الكواكب لا تزول عن مستقرها وكذا النجوم. فجعل السماء الدنيا جميلة مزدانة بضوئها ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾[سورة الصافات: ٦]. وقد زادها جمالا بأن جعل للشمس والقمر منازلا وبروجا وهو ما يزيد الناظرين للسماء بهجة وجمالا بتفاوت لمعان الكواكب، ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [سورة الحجر: ١٦]. ماذا سيحدث لهذا الكون الباهر الجمال، ومتسق النظام إذا اختل نظامه؟.

ماذا لو اختّل النظام الشمسي؟.

ذكرنا فيما سبق؛ التصور العلمي لانزلاق الأرض نحو الشمس مسارة بأفلاك الكواكب الشمسية بالترتيب نحو الشمس. لقد افترضوا الأزمان استنادا لسرعة الأرض وتسارعها نحو الشمس، ثم افترضوا أن الرحلة تستغرق نحو ٦٤ يوما ونصف اليوم، والله العالم بكل ما سيجري لأنه لا أحد يعلم ولم تجرَ تجربة في ذلك بل هي مجرد افتراضات لا تمنعنا من التدبّر والتفكير.

ويصف القرآن الكريم مشاهدا لما سيجري للأرض والكون كالتي ذكرناها سابقا ومتممة لها ولكننا جمعناها لوحدها.

١. الأرض والشمس:

لنبدأ من أن الأرض كوكب تابع للشمس وأن الحياة مرهونة بوجودها على ما هي عليه، ثم أن الله سبحانه وتعالى قد جعل واحدة من غايات خلق الشمس والقمر هو لتنظيم الحساب إلى سنين وأشهر، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[سورة يونس: ٥]. وهذه الشمس قد رسم لها فلكا ومسارا تجري فيه وتنتقل من مكان لآخر كما أراده الله لها وقدّره تقديرا حكيما الى أن تبلغ أجلها

وغايتها؛ ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [سورة يس: ٣٨].

ويظل الشمس والقمر متلازمين لما خط لهما من المسير. وفيه لا تدرك الشمس القمر حتى يختل بذلك التدبير المعمول بهما، ولا يمكن لأحدهما أن يتداخل بفلك الآخر فكل له تقديره الدقيق جدا وبحركة الأرض حول نفسها يتكون الليل والنهار. فلا الليل سابق النهار، "بل هما متعاقبان في التدبير فيتقدم الليل النهار فيجتمع ليلتان ثم نهاران بل يتعاقبان"(٧٨). فكل من الشمس والقمر وغيرهما من النجوم والكواكب يجرون في مجرى خاص به ومحفوظ. قال تعالى ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾[سورة يس: ٤٠]. وقد قدّر الله سبحانه وتعالى للشمس والقمر بحساب منه فيجريان على ما قدّر لهما من نوع الجري ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾[سورة الرحمن: ٥]. وعلى هذا النظام الدقيق دامت الحياة على الأرض واستقامت وعمرت.

وماذا لو توقفت الأرض عن الدوران حول نفسها؟

فسيكون -كما أسلفنا- ليل في نصف الأرض المعاكس للشمس أمده نصف سنه والنصف المواجه للشمس نهار ويستمر لنصف سنة أيضا، وأما أذا ما غيّرت الأرض دورانها حول نفسها بالدوران الطبيعي حول قطبها الشمالي الجنوبي وأصبح دورانها حول قطبها العرضي العمودي على الشمس، فسيصبح دورانها وقتئذ حول نفسها كما هو دوران القمر حول نفسه، ولكن لم يعد هناك ليل ونهار وتعاقب بينهما. بل لها وجه بعيد عن مواجهة الشمس ولا يرى نورها، وآخر يواجه الشمس دائما، فيعني ذلك سرمدية كل من الليل والنهار معا. قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ

(٧٨) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٧، ص ٩١.

﴿إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[سورة القصص: ٧١-٧٢].

اما إذا ما تغيرت الشمس وتكوّرت، وذلك بأن "يجمع نورها ويذهب ضوؤها ويحدث الله تعالى للعباد ضياء غيرها"(٧٩)، ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [سورة التكوير: ١]، فتتكور الشمس يعني "انظلام جرمها"(٨٠). وسينطفئ نورها وسينكدر ضياؤها، وسيحدث ذات الانكدار للشموس الأخرى تماما كما لشمسنا، وستمحى آثارها ويذهب نورها فتطمس؛ ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾[سورة المرسلات: ٨]. فبعضها أكبر من شمسنا وأشد ضياءً ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾[سورة التكوير: ٢]، ويومئذ ستتهاوى كل النجوم والكواكب فلا نظام يحدها ولا أفلاك تجري فيها، وستنفرط كما ينفرط العقد فتتناثر اللآلئ، ويضطرب نظام حركتها ويختل، ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [سورة الإنفطار: ٢]. ويتزامن مع ذلك تماما أن تتوقف الأرض عن دورانها حول نفسها وحول الشمس فجأة مما يجعل من الهواء المحيط بالأرض وكذلك من المياه الموجودة في البحار والمحيطات أن تستمر بحركتها وهي المساوية لسرعة دوران الأرض قبل التوقف وهي ١٧٦٠ كيلومتر في الساعة على خط الاستواء، فهذا يكفي لكنس ما على وجه الأرض ليس له جذور صخرية. فيرسل الله سبحانه وتعالى الحاصب وهي الريح المهلكة في البر والقاصف وهي الريح المهلكة في البحر. ريحاً كاسرة للسفن أو مهلكة مغرقة لكل شيء؛ ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾[سورة الإسراء: ٦٨-٦٩]. فإن هذه الريح ستقتلع ما علا سطح الأرض

(٧٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج١٠، ص ٢٧٦.

(٨٠) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢٠، ص ٢١٣.

فتثير التراب و"ستقلب باطنها إلى ظاهرها وكذلك تشمل القبور"(٨١)، ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾[سورة الإنفطار: ٤]، ريح شديدة عاصفة تدفع أمواج البحر العالية فتحيط بهم من كل جانب؛ ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾[سورة يونس: ٢٢]، وكذلك ستتلاطم مياه المحيطات والبحار لتنسكب جانبا، فتغمر كل شيء، وسينفتح بعضها في بعض حتى يزول الحائل ويختلط العذب منها والمالح ويعود بحراً واحداً، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾[سورة الإنفطار: ٣]، يحدث ذلك بعدما غاب النظام الذي كان حافظا لها حيث جعل سبحانه وتعالى الأرض مستقرة لا تميد بنا وجعل في فرجها التي في جوفها أنهاراً وجعل لها جبالاً ثابتة وجعل بين البحرين مانعاً من اختلاطها وامتزاجهما، ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾[سورة النمل: ٦١]. سيغيب ذلك وينتهي، وسيعم الأرض حينئذ ظلام دامس هذا ما سيحدث على الأرض. وبالتأكيد فسيكون من الأسهل للقمر عند اختلال النظام، فينخسف نوره، ويذهب ضياؤه، قال تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ [سورة القيامة: ٨] وهنا يجتمع الشمس والقمر على غياب نورهما ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [سورة القيامة: ٩]، فيجتمعان، وقد يكون جمعهما "جمعاً في ذهاب نورهما بما يراه الانسان. وجعل أحد الشيئين مع الآخر. فالجمع على ثلاثة اقسام: جمع في المكان، وجمع في الزمان، وجمع الاعراض في المحل. وجمع الشيئين في حكم او صفة مجاز"(٨٢). لا بأس حتى وإن جمعا في المكان والزمان فيمكن ذلك، ولم يعد هناك سراج ولا قمر منير، وهما اللذان كانا يزينان السماء الدنيا بنورهما ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[سورة الفرقان: ٦١]، فتبارك

(٨١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢٠، ص ٢٢٣.

(٨٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج١٠، ص ١٩٣.

الرحمن من اتقان محكم متين.

ولم يعد ذلك التلازم قائما بينهما، ووقتا لا يتعداه أحدهما على الآخر، ذلك التوقيت المتلازم والمتبادل الذي ينتج عنهما الليل والنهار. والذي كان يومئذ في الحياة الدنيا وتنعم بها الموجودات على الأرض: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [سورة يس: ٤٠]، ولكن باختلال هذا النظام الدقيق حينئذ لم يعد هناك فلك خاص لكل واحد منهما، بل سيجتمعان ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [سورة القيامة: ٩]. فسينشق القمر وينفلق الى نصفين "فينفصل بعضه عن بعض فصار فرقتين شقتين"(٨٣) قال تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[سورة القمر: ١].

٢. **النجوم والسماء:**

ولم تعد هناك نجوم يُهتدى بنورها ومواقعها ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾[سورة الأنعام: ٩٧]، بعدما كانت مسخرة للإنسان في حياته يهتدي بها في الليالي الحالكة الظلام، فيذكرهم سبحانه وتعالى بجمال نظمها وترتيب مواقعها الدقيق: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾[سورة النمل: ٦٣].

وأما السماء التي كانت مثل السقف المحفوظ والمحكم فإنها بعدما تهاوت النجوم وتناثرت، وانطفأ نورها فستصبح واهية ضعيفة، وستكون كالدخان فتضعف وتضمحل. فهي في مور شديد ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾[سورة الطور: ٩]، ولم تعد تلك السماء "ذات الطرائق الحسنة المراد منها مسير الكواكب او نضدها على طرائق التزيين"(٨٤) تلك التي أقسم بها الله سبحانه وتعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾[سورة الذاريات: ٧]. فإنها ستتشقق وتصبح واهية رخوة، ضعيفة مسترخية، بانتقاض بنيتها ولا ينظر أكثر هولاً من رؤية السماء في

(٨٣) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٩، ص ٥٥.

(٨٤) تفسير الصافي، الصافي في تفسير كلام الله الوافي، الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، مكتبة الصدر، طهران، ج٥، ص ٣٦.

هـذه الهيـأة، ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [سورة الحاقة: ١٦]، وستنفرج فتتشقق وتتصدع ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴾ [سورة المرسلات: ٩]، و"تشققها هذا سيصبح كقطع الأبواب"(٨٥)، ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾[سورة النبأ: ١٩]؛ "فشقّت شقوقاً"(٨٦)، "وتتقطـــــع"(٨٧) ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ [سورة الانفطار: ١]، وستتفطر وتنصهر أو أنها ستجري كالدهان "فانّ الدّهن إذا صبّ بعضها فوق بعضٍ اختلف الوانها ودُرديّ الزّيت ايضاً تختلف الوانه"(٨٨)، وستصير حمرة كـالأديـم الأحمـر؛ ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [سورة الرحمن: ٣٧]، وذلك كله لأنها أطاعت وانقادت لربها وكانت حقيقة وجديرة بأن تستمع وتطيع فتتشقق وتتصدع وتنفرج ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [سورة الانشقاق: ١ -٢].

فلـم تـعـد سـمـاء جميـلـة رائـعـة كما عهدناها مبنية بقوة ومتانة من قبل القدير ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[سورة الـذاريـات: ٤٧] ولم تعد سقفا محفوظا ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [سـورة الأنبياء: ٣٢] تزينه الكواكب ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ [سـورة الصافات: ٦]، لكنها ستكشط "بالقلع عـن شـدة الـتـزاق فينطبق على طيها"(٨٩)؛ ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ [سورة التكوير: ١١] فتطـــوى بقدرة القدير ويحـكـم قبضته "فيطويها بـقـدرتـه كما يطوي الواحد منا الشيء المقدور له طيّه بيمينـــــه"(٩٠) ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌ

(٨٥) التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي (ت ٤٦٠ هـ).

(٨٦) تفسير الصافي، الصافي في تفسير كلام الله الوافي، الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، مكتبة الصدر، طهران.

(٨٧) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(٨٨) تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة، سلطان محمد الجنابذي الملقب بسلطان علي شاه (ت القرن ١٤ هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

(٨٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(٩٠) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق

بِيَمِينِهِۦ ﴾[سورة الزمر: ٦٧]، فيطويها كطي السجل ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾[سورة الأنبياء: ١٠٤] أو يطويها بمعنى "يفنيها فتتحول دخاناً"(٩١). ثم تصير مائعة "كدردي الزيت، أو كعَكَر القطران، أو مصهور الفضة"(٩٢) فتنصهر السماء تماما وتصير "كمصهور النحاس أو الرصاص"(٩٣)، أو الفلزات، فتكون كالمهل: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾ [سورة المعارج: ٨]. فتملأ فضاء الكون كله بالدخان أو ما يشبه الغيوم ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾ [سورة الفرقان: ٢٥] وينتشر دخان غليظ يغشى الناس ويغطيهم ﴿ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾[سورة الدخان: ١٠].

"دخان يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أمّا المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة، وأمّا الكافر فبمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره"(٩٤).

فالسمـــاء هي الشاهد الأول على اختلال النظام الكوني، فلم يعد هناك تزامنا، ولا أفلاكا ولا بروجا للكواكب ولا للشمس ولا منازل للقمر كالتي أقسم بها سبحانه وتعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ [سورة البروج: ١] التي جعلها زينة للناظرين، في جوّها من البهجة والجمال الذي يولّه الألباب بنجومها الزاهرة وكواكبها اللامعة على اختلاف أقدارها وتنوّع لمعانها ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [سورة الحجر: ١٦] وحفظها سبحانه وتعالى من كل ما يسيء لها ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾[سورة الحجر: ١٧]. وزينها سبحانه وتعالى بزينة الكواكب

والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(٩١) تفسير القمي، أبو علي بن إبراهيم القمي (القرن الثالث)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

(٩٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(٩٣) تفسير القمي، أبو علي بن إبراهيم القمي (القرن الثالث)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ج٢، ص ٧.

(٩٤) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٥. ج ١٦، ص ١٣٢.

فكانت من الجمال ما يبهر العقول ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ [سورة الصافات: ٦]. وإن ذلك الكون الفسيح المتنامي والمتحرك نحو التوسع والامتداد، وذلك "البناء الواسع الفضاء عجيب، فإن القبة الواسعة لا يقدر عليها البناؤون"(٩٥) ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[سورة الذاريات: ٤٧]. لم تصمد هكذا إذا جاء الوعد الحق ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٧]، فستتهاوى هذه النجوم وتتساقط من مواقعها التي حددها لها سبحانه وتعالى ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ [سورة الواقعة: ٧٥]. وسينمحي أثرها فتطمس ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾[سورة المرسلات: ٨]، حينئذ سينطفئ نورها وتموت ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾[سورة التكوير: ٢]، بعدما كانت تثقب الظلام بضوئها ﴿ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾[سورة الطارق: ٣]، فتفقد مواقعها وأفلاكها وتتناثر كالعقد المنفرط في الكون ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾[سورة الانفطار: ٢].

٣. **الشمس والأرض:**

أما شمسنا فإنها ستتسارع نحو غايتها ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [سورة يس: ٣٨]. آخذة معها كل الكواكب الشمسية وأرضنا واحدة منها ومعها القمر. فيجتمع القمر مع الشمس ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [سورة القيامة: ٩]. فسينشق القمر وينفلق الى نصفين "فينفصل بعضه عن بعض فصار فرقتين شقتين"(٩٦)، ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[سورة القمر: ١].

لنتوقف هنيهة ونتمعن في التغيرات قبيل اجتماع الأرض بالشمس المعبّر عنها بالقرآن الكريم اجتماع الشمس والقمر. وسوف لا أعتبر التسلسل في الحوادث هي قطعية وإنما علمها عند الله سبحانه وتعالى وإنما رتبناها ليسهل علينا تصورها.

فستمور الأرض وتخسف وينقلب

(٩٥) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة. ج ٢٨، ص ٢٢٧.

(٩٦) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٩، ص ٥٥.

سافلها على عاليها "وإن الله يخسف بهم الأرض بأمره وإذنه. فيحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك، فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها، فيذهبون والأرض فوقهم تمور، فتلقيهم إلى أسفل السافلين"(٩٧) ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾[سورة الملك: ١٦].

عندئذ لم تبق الأرض كما كانت عليه فستكتسحها الريح الشديدة السرعة بعدما يتوقف دورانها وأنها ستقتلع كل ما على وجهها فتُمدّ "بزوال كل انثناء فيها وتستوي"(٩٨)، «فتنبسط باندكاك جبالها وآكامها حتى تصير كالصحيفة الملساء»(٩٩) ﴿ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴾ [سورة الانشقاق: ٣]، فلا وجود للأشجار وستصبح أرضا صفصفا ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفۡصَفًا ﴾[سورة طه: ١٠٦]، بعدما تنسف الجبال نسفا فتتذرى وتتطاير ولم يعد لها وجودا ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴾[سورة طه: ١٠٥] فتتسطح وتصبح ملساء ولم يعد فيها ارتفاعا ولا انخفاضا ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴾[سورة طه: ١٠٧]، فينهار النظام الشمسي، فلا الأرض تدور حول نفسها ولا هي تدور حول الشمس ولم تعد الأرض في مدارها حول الشمس فتحدث فيها زلزلة عظيمة لا يمكن وصفها، فهي ليست كالزلازل المعهودة مع ما يرافقها من دمار وخراب. زلزلة ينتج عنها أن تتحرك الأرض كل الأرض، وتضطرب اضطرابا شديدا، ﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ﴾ [سورة الزلزلة: ١]، "فإذا حُركت الأرض تحريكاً شديداً فأنها ستعمّ جميع الأرض. بخلاف الزلازل المعهودة التي تختص ببعض الأرض فتكون قوية لشدتها"(١٠٠).

(٩٧) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة. ج٣٠، ص ٧٠.

(٩٨) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة.

(٩٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج ١٠، ص ٦٩٩.

(١٠٠) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق

﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة الحج: ١] وتتزعزع الأرض وما عليها وما تحتها فترجف الأرض بترديد واضطراب ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾ [سورة النازعات: ٦]، فترج رجا عنيفا وتهتز هزا. كأن الأرض قد "حرّكت تحريكاً شديداً حتى ينهدم كل شيء فوقها من جبل وبناء"[١٠١] ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾[سورة الواقعة: ٤]، ويرافق كل ذلك التحريك والاضطراب والزلزلة العظيمة صوت شديد زاجر ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ [سورة النازعات: ١٣]، صوت يصك الآذان ويصعق كل سامع له. هذا الصوت الشديد المصاحب للخراب الكبير سوف لا يبقي كائنا حيا إلا وقتله حينئذ يسود الأرض الموت في كل مكان ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [سورة الزمر: ٦٨]. " فإذا سمع الناس ذلك الصوت وهو في الشدة بحيث لا تحتمله طبائعهم يفزعون عنده ويصعقون ويموتون"[١٠٢]، ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة النمل: ٨٧]، وسنفصل بذلك الصوت الرهيب في الفصل القادم. ولم تعد أرضنا هي ذات الأرض التي نحن عليها فتتبدل ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾[سورة إبراهيم: ٤٨]، "فيزاد في الأرض وينقص منها وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها وتمد مد الأديم وتصير مستوية لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وتتغير السماوات بذهاب الشمس والقمر والنجوم وبالجملة سيتغير كل من الأرض والسماوات عما هو عليه الآن في الدنيا من الصفات والأشكال"[١٠٣]. فلا الرياح العاتية الشديدة ولا ارتجاف الأرض يبقي ما في باطن الأرض على حاله. فستشقق

والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(١٠١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، دار المعرفة، ٢٠٠٩، ج٦، ص ٢١.

(١٠٢) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة. ج٢٤، ص ٢١٩.

(١٠٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، احمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، دار طيبة. ج١٥، ب ٤٤، ص ١٩.

وتتفطّر ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾[سورة ق: ٤٤] فستلقي الأرض ما في باطنها على وجه الأرض المستوية الخالية من كل شيء وهي الساهرة[١٠٤] ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾[سورة النازعات: ١٤]. فإن هذه الريح ستقتلع ما علا سطح الأرض فتثير التراب و"ستقلب باطنها إلى ظاهرها وكذلك تشمل القبور"[١٠٥]، ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾[سورة الإنفطار: ٤]. ولا تعود الأرض تحتمل ما في داخلها كلما اقتربت من الشمس فيتشقق سطحها ﴿ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ [سورة الطارق: ١٢] فتتشقق الصخور ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾[سورة عبس: ٢٦] وتخرج ما في بطنها من كنوزها ومعادنها وحممها ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [سورة الزلزلة: ٢]، "وتخلو غاية الخلو حتى لم يبق في باطنها شيء كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو"[١٠٦] ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [سورة الانشقاق: ٤].

٤. البحار والمحيطات:

وأما البحار والمحيطات فستتلاطم أمواجها وتنسكب بغزارة على السواحل فتغمر مياهها الأراضي الشاسعة وتتفرغ من مياهها وتمتلئ الأخرى. فيكون البحر مسجورا وهو تعبير عن «البحر الفارغ والممتلئ»[١٠٧] ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ [سورة الطور: ٦]، أو أن البحار ستفرغ "فتغيض مياهها بتسجير النار فيها"[١٠٨] ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾[سورة التكوير: ٦]. فتنفجر البحار بعضها على بعض وتزول الحواجز بينها وتغرق الأرض،

(١٠٤) الساهرة الأرض المستوية أو الأرض الخالية من النبات، الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢٠، ص ١٨٦.

(١٠٥) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢٠، ص ٢٢٣.

(١٠٦) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة. ج٣١، ص ١٠٤.

(١٠٧) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج١٠، ص ٢٧٤.

(١٠٨) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٩، ص ٧.

و"تتفجر البحار بعضها في بعض فصارت البحور كلها بحراً واحداً ويرتفع البرزخ بينها"[١٠٩]. ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾[سورة الانفطار: ٣]. وأنها قد تسجرت فأوقدت فصارت ناراً تضطرم، فتمتلئ السماء بخارا شديدا وغماما يعم الأرض من كل جهاتها، ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾[سورة الفرقان: ٢٥].

٥. الجبال:

وسيرافق هذا المشهد المخيف أن تتحرك الجبال وتسير تاركة جذورها فتزول جميعها فلا جبال ولا تلال. «فإذا زالت الجبال والتلال ترى الأرض بارزه لا تغيب ناحية منها عن أُخرى بحائل حاجز ولا يستتر صقع منها عن صقع بساتر»[١١٠] ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [سورة الكهف: ٤٧] فتصبح الأرض مستوية لا حواجز ولا جبال

(١٠٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(١١٠) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٣، ص ٣٢١.

وكأن الشروق يرى على وجه الأرض، ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [سورة الزمر: ٦٩]. وتندك أجزاؤها وتتلاشى وتتكسر الجبال الى قطع صغيرة، "فكسرتا كسرة واحدة لا تثنى حتى يستوي ما عليها من شيء مثل الأديم الممدود. ويضرب بعضها ببعض الى أن تفتتت الجبال وسفتها الرياح وبقيت الأرض شيئاً واحداً لا جبل فيها ولا رابية. بل تكون قطعة مستوية وإنما فتدك الأرض جملة واحدة والجبال دكة واحدة"[١١١]، ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [سورة الحاقة: ١٤]، «حتى صارتا غباراً»[١١٣]. «فتصير الجبال رملا سائلا متناثراً»[١١٤]، وتصير ككثيب الرمل الذي يهيل إذا حرّك من أسفله، ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾

(١١١) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(١١٢) [سورة الفجر: ٢١].

(١١٣) التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي (ت ٤٦٠ هـ).

(١١٤) التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي (ت ٤٦٠ هـ).

[سورة المزمل: ١٤]. ثم يفرق الله تركيب أجزاء الجبال وينسفها نسفاً ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾[سورة طه: ١٠٥]، فتنهد الجبال بعدما تتشقق الأرض ﴿وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾[سورة مريم: ٩٠]. وتفتت تفتيتا دقيقا فتبس بسا وتصبح كالدقيق ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾[سورة الواقعة: ٥]، فتصبح "كالعهن المنفوش فتنتشر كالصوف المنتشر ذو ألوان مختلفة فتتلاشى الجبال على اختلاف ألوانها بزلزلة الساعة"[١١٥]. ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [سورة القارعة: ٥] فتتفرق كالغبار أو أدق "كالهباء الظاهر في شعاع الشمس الداخل من الكوة"[١١٦]، ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا﴾ [سورة الواقعة: ٦] وتصبح غاية بالدقة بل تصبح كالسراب. ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[سورة النبأ: ٢٠]، "فالسراب هو الموهوم من الماء اللامع في المفاوز ويطلق على كل ما يتوهم ذا حقيقة ولا حقيقة له على طريق الاستعارة" فستنتهي الجبال تماما ولا يكون لها وجود.

الفصل ١١:

النفخة الأولى والنفخة الثانية والانتقال الى النشأة الآخرة:

العنوان يتحدث عن إماتة الأحياء جميعها في الأرض والسماء ثم إحياءهم بعد إماتتهم، ثم الهلاك لكل شيء. وسنتحدث عن النفختين لنفهم معناهما وآثارهما كما صورهما القرآن الكريم. ونعرّج فيما بعد ذلك على ما بعد النفخة الثانية وما قبل النشأة الآخرة وهي الهلاك لكل شيء إلا الخالق سبحانه وتعالى.

ويتردد في ذكر النفخة في القرآن الكريم لفظ الصوُر. والصور يعني: البوق الذي يستخدم عادة لإيقاف او لتحريك الجند وأحيانا القوافل ولقد استخدم لفظ الصور مقترنا بالنفخة في عدد من الآيات[١١٧]، وهذا يدل على

(١١٥) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢٠، ص ٣٤٩.

(١١٦) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٩، ص ١١٦.

(١١٧) [سورة الأنعام ٧٣]، [سورة الكهف ٩٩، [سورة طه ١٠٢]، [سورة المؤمنون

توقف الحياة باسرها في عالم الموجودات ومن ثم حركتها مرة أخرى. والنفخ في الصور كناية عن إعلام الجماعة الكثيرين كالعسكر بما يجب عليهم أن يعملوا به جمعاً كالحضور والارتحال وغير ذلك. وقد يعبر عنه قرآنيا بالناقور. والناقور يعني «الصور الذي ينقر أي ينفخ فيه الملك»[118]. قال تعالى ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾ [سورة المدثر: ٨]، "وهي كهيئة البوق"[119].

وقد ورد في القرآن الكريم بالإضافة الى النفخة ألفاظ أخرى لها ذات الدلالة وهي كلها متعلقة بالصوت الشديد وما يلازمه ومنها:

١. **الصيحة:**

الصيحة: «الصيحة هي رفع الصوت»[120]، قال تعالى ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ [سورة ق: ٤٢] والصيحة "صاعقة سماوية نازلة عليهم أماتتهم بصوتها وأحرقتهم بنارها إذ لا مانع من نسبة حادث من الحوادث الكونية خارق للعادة أو جار عليها إلى ملك روحاني إذا كان هو في مجرى صدوره كما أن سائر الحوادث الكونية من الموت والحياة والرزق وغيرها منسوبة إلى الملائكة العمالة"[121]. وتؤدي بهم الى الموت ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[سورة ق: ١٩]، فأخذتهم الصيحة السماوية وهي العذاب المحتوم فأهلكتهم وجعلتهم كغثاء السيل، وما يحمله السيل من يابس النبات والورق والعيدان البالية. فصاروا كالمتبقي في حضيرة الماشية من نباتات واشجار يابسة المنقطعة بالكسر

١٠١]، [سورة النمل ٨٧]، [سورة يس ٥١]، [سورة الزمر ٦٨]، [سورة ق ٢٠]، [سورة الحاقة ١٣]، [سورة النبأ ١٨]، [سورة المدثر ٨].

(١١٨) لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر –بيروت، ١٤١٤هـ.

(١١٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج ١٠، ص ١٧٦.

(١٢٠) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم –الدار الشامية، ٢٠٠٩.

(١٢١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٠، ص ٣١٦.

والرضّ الذي يجمعه صاحب الحظيرة؛ فصاروا كيبيس الشجر المتفتت إذا تحطم. ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴾[سورة القمر: ٣١] ولقد أخذ الله سبحانه على نفسه أن تموت كل الأحياء ذات نفس فقال ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ ﴾[سورة آل عمران: ١٨٥][١٢٢]، حينئذ يعمّ السكون والخمود ولا حركة لها ﴿ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴾ [سورة يس: ٢٩]، فالصيحة عذاب استئصال تقضي عليهم وتهلكهم وما لها من رجوع أو مهلة ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴾[سورة ص: ١٥]، ويقال أن هذه الصيحة هي صيحة الإحياء. فيقومون من موتتهم ناظرين فيخرجون من الأجداث أو يخرجون للمثول أمام الله سبحانه ﴿ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴾[سورة ق: ٤٢]، فتشقق عنهم الأرض سراعا ﴿ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗا ﴾[سورة ق: ٤٤] أذلاء لما سيؤولون له ﴿ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴾[سورة النمل: ٨٧]، فيلقون على "وجه الأرض المستوية الخالية من النبات"[١٢٣] ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾[سورة النازعات: ١٤].

٢. الصاخّة:

الصاخة: «الصاخة صيحة تصخ الأذن أي تطعنها فتصمها لشدتها؛ ومنه سميت القيامة الصاخة»[١٢٤]. قال تعالى ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾[سورة عبس: ٣٣] فإذا جاءت الصاخة فإن المرء سيهرب من موالاة أخيه ولا يكلمه ﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴾[سورة عبس: ٣٤]، ﴿ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴾ [سورة عبس: ٣٥ -٣٧].

٣. القارعة:

القارعة: «هي المصيبة تقرع الإنسان

(١٢٢) [سورة الأنبياء: ٣٥]، [سورة العنكبوت: ٥٧].

(١٢٣) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢٠، ص ١٨٦.

(١٢٤) لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر -بيروت، ١٤١٤هـ، مادة صخخ.

قرعاً كأنها تؤذنه بأشد من نفسه»[١٢٥].

﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ [سورة القارعة: ١ -٣] وهي "كل هنة شديدة القرع. وهي القيامة أيضا"[١٢٦]. والقارعة من القرع وهو الضرب باعتماد شديد مما يؤدي الى أن يكون الناس «كالجراد الذي ينفرش ويركب بعضه بعضاً وهو غوغاء الجراد»[١٢٧]، ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾[سورة القارعة: ٤]، وستتلاشى الجبال بمختلف ألوانها وستصبح كالصوف المنفوش ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [سورة القارعة: ٥].

٤. الزجرة:

«الزجرة الصرفة عن الشيء بالمخافة»[١٢٨]. وهي «صيحة»[١٢٩]، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾[سورة الصافات ١٩].

٥. الراجفة والرادفة:

الراجفة: «صيحة عظيمة وفيها تردد واضطراب كالرعد إذا تمخض»[١٣٠]، ﴿تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ [سورة النازعات: ٦] وتأتي بعدها الرادفة ﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [سورة النازعات: ٧].

٦. النفخة الأولى ﴿نفخة الإماتة﴾:

جاء في القرآن الكريم إشارة الى ما سيجري عندما ينفخ في الصور ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾[١٣١] [سورة الكهف: ٩٩]، وفيها يموت كل ذي حياة في السماوات والأرض، فالموت إنما يلحق الأجساد بانقطاع تعلق الأرواح بها. فيصعق كل

(١٢٥) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١١، ص ٣٦١.

(١٢٦) المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت ٤٥٨هـ)، ١٩٩٦، ج٤، ص ١٨٥.

(١٢٧) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢٠، ص ٣٤٩.

(١٢٨) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(١٢٩) تفسير الصافي، الصافي في تفسير كلام الله الوافي، الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، مكتبة الصدر، طهران.

(١٣٠) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ).

(١٣١) [سورة الأنعام: ٧٣].

من في السماوات والأرض فيهلكوا جميعا، والصعق معناه «الصوت الشديد. ومنه الصاعقة، وهي الوقع الشديد من الرعد. ويقال إن الصعاق الصوت الشديد. ومنه قولهم: صعق، إذا مات، كأنه أصابته صاعقة»[١٣٢]، «وربما مات منه، ثم استعمل في الموت كثيرا»[١٣٣] ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[سورة الزمر: ٦٨]. وقد قدمنا للمشاهد التي تؤدي الى انعدام الحياة، نتيجة لتغيّر الأرض والسماء. ففي مثل هذه الأوضاع والأحوال، تموت جميع الكائنات الحية فتحدث صيحة عظيمة: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ [سورة يس: ٤٩] "تفاجئهم ولا تمهلهم أن يموتوا من فورهم فلا يستطيعون توصية –على أن الموت يعمهم جميعاً دفعة فلا يترك منهم أحداً يوصي إليه –ولا أن يرجعوا إلى أهلهم إذا كانوا في الخارج من بيوتهم مثلاً"[١٣٤]. ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [سورة يس: ٥٠] ففي هذه النفخة إماتة لجميع الأحياء. وهنا أود الإشارة الى أنه: بالإضافة لما سبق الى أن الإماتة هنا على ما بينه المفسرون تقع على الثقلين وهما الجن والإنس كما جاء في الآية الشريفة ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٍ﴾[سورة الرحمن: ٢٦]. فإن هذه الآية لم تتكلم عن باقي الموجودات الكونية التي تكلمت عنها الآية ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ﴾ [سورة القصص: ٨٨] والتي سنتكلم عنها في المرحلة ما بعد النفخة الثانية. فيتوضح لنا أن النفخة الأولى إنما هي لإماتة الثقلين والنفخة الثانية هي لإحيائهم. ويتم في النفختين معا ظواهر كونية تؤدي الى إزالة الحياة للكائنات الحية من على الأرض. وقد

(١٣٢) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، ت ٣٩٥ هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (ت ٣٩٥)، ج٣، ص ٢٨٥.

(١٣٣) تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، دار الهداية، مادة صعق، ج٢٦، ص ٢٥.

(١٣٤) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٧، ص ٩٨.

أشرنا لها في االفصول السابقة، وكذلك تغيير وجه الأرض وتسطيحها تماما بل وتغيير موقعها وغيرها من الظواهر وكلها وضعت تحت أشراط الساعة ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾[سورة محمد: ١٨].

٧. أشراط الساعة:

والأشـــراط جمع الشَرَط بالتحريك وهـو العلامة، وبذلك فقد بين القرآن الكريم علامات الساعة التي تخبر بوقوع يوم القيامـــة. وسأمرّ عليها -فقط- لاستكمال الموضوع، ولن أقف عندها كثيرا، ومنها(١٣٥):

١. بعثة النبي ﷺ:

والكلام للمشركين ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾[سورة محمد: ١٨].

٢. اندكاك سد يأجوج ومأجوج:

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾[سورة الكهف: ٩٨ -٩٩].

٣. اتيان السماء بدخان مبين:

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[سورة الدخان: ١٠ -١١]، ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [سورة الدخان: ١٦].

٤. نزول المسيح عليه السلام:

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾[سورة الزخرف: ٥٧] ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[سورة الزخرف: ٦١].

٥. إخراج دابة الأرض:

﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[سورة النمل: ٨٢].

٦. مجيء بعض آيات الرب تعالى:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ

(١٣٥) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، جعفر السبحاني، ج ٤، دار احياء التراث العربي، بيروت.

﴿ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[سورة الأنعام: ١٥٨].

٧. **مشاهد يوم القيامة:**

وهناك مشاهد القيامة ومنها الحوادث الكونية الهائلة التي ستقع في نفس قيام الساعة. وهي التي أسهبنا في الإشارة اليها فيما سبق وسنتكلم عن الجزء الأخير منها ما بين النفخة الثانية والمعاد وهو الهلاك التام للكون كله ونظامه، والله العالم بالحقائق جميعها.

٨. **النفخة الثانية ﴿نفخة الإحياء﴾:**

النفخة الثانية هي التي تحيا فيها الأموات، دون النفخة الأولى التي تموت فيها الأحياء لكون ما يترتب عليها من انتفاء الأنساب، «واعتبار انتقاء الأنساب من الحوائج الدنيوية التي تدعو الإنسان إلى الحياة الاجتماعية التي تبتني على تكون البيت، والمجتمع المنزلي يستعقب التعارف والتعاطف وأقسام التعاون والتعاضد وسائر الأسباب التي تدوم بها العيشة الدنيوية ويوم القيامة ظرف جزاء الأعمال وسقوط الأسباب التي منها الأعمال فلا موطن فيه للأسباب الدنيوية التي منها الأنساب بلوازمها وخواصها وآثارها»[١٣٦]، وأن التساؤل وثقل الميزان وخفته إلى غير ذلك من آثار هي من آثار النفخة الثانية. ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾[سورة المؤمنون: ١٠١ -١٠٣]. ومن علامات إحياء الأموات بالنفخة الثانية أن يجمعون بعد سكون وموت، ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾[سورة الكهف: ٩٩] وكذلك يحشرون، ويجري بينهم تخافت واستغراب لفترة مكوثهم ويتصورون أنهم مكثوا يوما. فيجمعون والأرض مستوية لا جبال فيها ولا وديان ولا نبات، وفي هذا الموقف المهول فإنهم جميعا يتبعون داعي الإحضار بكل خوف وخشوع ومن غير أن يرفعوا صوتا فيتحدثون همسا، فلا

(١٣٦) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٥، ص ٦٩.

شفاعة شفيع إلا من يأذن له الله بها: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾[سورة طه: ١٠٢ -١١١].

وتجمل الآيات السابقة وكذلك آيات أخرى قد ورد ذكرها الى ما سيجري على الناس يوم الجزاء من حين يبعثون إلى أن يجزوا بأعمالهم من الإحضار ثم الحشر ثم تسطيح الأرض ثم أنهم يطيعون ويتبعون الداعي للحضور ثم تسقط الشفاعة حينئذ ثم يحاطون علما بحالهم وهي مقدمة للحساب والجزاء ثم سلطان الله وقوته عليهم ونفوذ حكمه فيهم وبالمقابل ذلتهم وخيبتهم.

لقد ذكر القرآن الكريم النفخة وما يتعلق بها من صيحة ونقر وصخّ وزجر ورجف وقرع في آيات عديدة[١٣٧] وهنا لا أريد أن أصنف تلك الآيات للنفخة الأولى أو أيها للنفخة الثانية فقد تناولها المفسرون وكتّاب آخرون[١٣٨]، وما أريد أن ألفت الانتباه إليه هو نقطة الانتقال بين نهاية النفخة الثانية وهي إحياء الأموات وانتهاء الكون المتمثل في قوله سبحانه وتعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ﴾ [سورة القصص: ٨٨]. ولأصطلح عليها ما قبل المعاد أو نفخة الهلاك.

(١٣٧) الزمر ٦٨، النمل ٨٧، الحاقة ١٣ -١٤، المؤمنون ١٠١، الكهف ٩٩، طه ١٠٢، النبأ ١٨، الأنعام ٧٣، ق ٢٠، ق ٤٢، يس ٢٩، يس ٤٩، يس ٥١، يس ٥٣، ص ١٥، المدثر ٨ -٩، عبس ٤٣ -٤٤، الصافات ١٩، النازعات ٦، النازعات ١٣، القارعة ١-٣، القمر ٣١.

(١٣٨) دروس في العقيدة الإسلامية، محمد تقي اليزدي، دار الحق، بيروت. الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، جعفر السبحاني، ج ٤، دار احياء التراث العربي، بيروت، مفاهيم القرآن، جعفر السبحاني، فصل ١٦، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.

٩. **ما قبل المعاد ﴿نفخة الهلاك﴾:**

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة: ١٣ -١٦]. لو تتبعنا تسلسل الآيات الشريفة نرى أن بعد تلك النفخة الواحدة ستدك الأرض بما فيها الجبال وحينئذ يصير يوم القيامة، ثم يلحق باندكاك الأرض انشقاق السماء فتصبح واهية ضعيفة. إن "في توصيف النفخة بالواحدة إشارة إلى مضي الأمر ونفوذ القدرة فلا وهن فيه حتى يحتاج إلى تكرار النفخة، وأنها النفخة الثانية التي تحيي الموتى. وقوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ فالدكّ أشد الدق وهو كسر الشيء وتبديله إلى أجزاء صغار، وحمل الأرض والجبال إحاطة القدرة بها، وتوصيف الدكة بالواحدة للإشارة إلى سرعة تفتتها بحيث لا يفتقر إلى دكة ثانية. وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، أي قامت القيامة"[١٣٩].

وإلحاقا بهذه الصورة هناك مرحلة أخيرة، وهي مرحلة الهلاك لكل شيء بعد نفخة الإحياء. وفي هذه المرحلة لا يبقى فيها حياة للكائنات الحية ولا وجود لشيء، فكل شيء باطل في ذاته ولا وجود له وهو معدوم. وفي هذه النفخة يعمّ الموت كل شيء من الأحياء وغيرها «وكل شيء فانٍ بائد الا ذاته»[١٤٠]. أي أن «كل شيء هالك في نفسه باطل في ذاته لا حقيقة له إلا ما كان عنده مما أفاضه الله عليه»[١٤١] لقوله تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[سورة القصص: ٨٨]، وقد اختلف المفسرون في تفسير ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، فمنهم "من فسر الهلاك بالعدم، والمعنى أن الله تعالى يعدم كل شيء سواه عز وجل، ومنهم من فسر الهلاك بإخراجه عن كونه منتفعاً به، إما بالإماتة أو بتفريق الأجزاء،

(١٣٩) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٩، ص ٣٩٧.

(١٤٠) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج٤، ص ٢٦٩.

(١٤١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٦، ص ٩٠.

وإن كانت أجزاؤه باقية، فإنه يقال هلك الثوب وهلك المتاع ولا يريدون به فناء أجزائه، بل خروجه عن كونه منتفعاً به، ومنهم من قال: معنى كونه هالكاً كونه قابلاً للهلاك في ذاته، فإن كل ما عداه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكن الوجود كان قابلاً للعدم فكان قابلاً للهلاك، فأطلق عليه اسم الهلاك نظراً إلى هذا الوجه"(١٤٢).

بالتأكيد أن أيا كان من تلك الآراء في هلاك الأشياء، إما بتفريق أجزائها أو عدم الانتفاع بها أو عدمها وإبادتها فكلها تدور حول عدم وجودها على الصورة قبل الأخيرة، وبالفعل فإنه سوف يتغيّر كل شيء لقوله تعالى ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾[سورة إبراهيم: ٤٨]، وغيرها من الصور الكونية التي مررنا بها سابقا ومنها انشقاق السماء وانشقاق القمر وتكوير الشمس واجتماعها بالقمر ثم الصوت الشديد وغيرها كثير. أقول بالمجمل لم يعد هناك النظام الكوني المتناسق المنقاد الذي كان معمولا به بل سيتغيّر كل شيء. فالهلاك: "بطلان الشيء من العالم وعدمه رأسا"(١٤٣)، كما وأن «هلاك الأشياء بطلان وجودها الابتدائي وخلوّ النشأة الأُولى عنها بانتقالها إلى النشأة الأُخرى ورجوعها إلى الله واستقرارها عنده»(١٤٤)، ويتأكد لنا أن الأشياء كلها الى زوال ماعدا الواجب الوجود الخالق للأشياء ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[سورة القصص: ٨٨]. وزوالها هو زوال بنيتها التي كانت عليها. وعدمها هو غياب مظهرها وعينها، فهلاكها هو انتهاء صورتها التي هي عليها. لعلنا نتساءل كيف يكون ذلك؟.

وهنا تبرز حقيقة بيّنة واضحة وهي توقف حركة كل شيء. ولا يمكن أن يكون ذلك إلا بسكون الحركة الجوهرية، وهذا

(١٤٢) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة، ج٢٥، ص ٢٣.

(١٤٣) المفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم -الدار الشامية، ٢٠٠٩، مادة هلك.

(١٤٤) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٦، ص ٩٢.

يعني توقف حركة كل مكونات الذرة لأي ممكن الوجود. والذرة هي الجسم المكون الأصغر في الكون، وهذا يعني أيضا انتهاء كل شيء محسوس وملموس؛ فلا جبال ولا تراب ولا سماء ولا نجوم ولا هواء ولا أي شيء. فقط تبقى مكونات وأجزاء الذرة وهي الإلكترونات ومكونات النواة، والله وحده العالم. ويرافق ذلك تكون طاقة هائلة شديدة تفجّر الكون كله ولا يمكن تصورها أو تخيل عظمتها وشدتها. ولعل بوقوع الضرب المتتابع الذي سماه القرآن الكريم بالبطش وهو "الأخذ بشدة، وأكثر ما يكون بوقع الضرب المتتابع"(١٤٥) ولعظمتها وقوتها سمّاها بالبطشة الكبرى ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [سورة الدخان: ١٦]، تلك البطشة الكبرى توحي وترسم صورة الأهوال لما سيجري-والله العالم -في لحظات انتهاء النظام الكوني.

(١٤٥) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث-القاهرة. ج٢٧، ص ٦٥٨.

الخاتمة:

لقد مررنا بعرض الصوَر التي بينها القرآن الكريم لآيات يوم القيامة وما قبلها بحدوث النفختين الأولى والثانية. وأتممناها بما عرضته الآيتين الكريمتين ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [سورة الحاقة: ١٣ -١٦]، و ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [سورة القصص: ٨٨]. اللتان تبينان تلاشي الموجودات. وافترضنا أن تلاشيها هو ليس عدمها بل بقاء أجزاءها، وإنما يكون ذلك بسكون حركة مكونات الموجودات والمتمثلة بجوهر المادة، والمعرّف علميا بأصغر مكونات المواد وهي الذرة، فسكون الموجودات يتم بسكون حركة مكونات الذرة. وأنها أي مكونات الذرة ستستجيب حتما للأمر الإلهي مطيعة خاشعة خاضعة مدركة عالمة كما مر توضيح ذلك. وكنا قد فصلنا في الفصول السابقة مقدمات تمهيدية لتوضيح الغاية من بحثنا هذا.